# المجتمع والاقتصاد في تلمسان خلال العصر الزياني (ق٧ – ٩هـ / ق١٣ – ١٥م )

الأستاذ المساعد الدكتور
فؤاد طوهارة
جامعة ٨ ماي ٤٥ قالمة [الجزائر]

**الملخص**

حرص سّلاطين الدولة الزيانية على توفير الأمن والاستقرار، وتأمين طرق النقل والمواصلات والضرب على أيدي كلّ من تسّول له نفسه الاعتداء على الأموال والقوافل ، من القبائل المعارضة للسّلطة وقطّاع الطرق ، فاستحدثوا تنظيمات جديدة وفسحوا المجال لإقامة علاقات تجارية متنوعة بين الشمال والجنوب وداخل مدن الدّولة وإلى جانب العناية الخاصّة بالتجارة الخارجية .فقد توفرت للنشاط التجاري الأسواق الداخلية ، التي عرفت بتنظيمها وحسن إدارتها، وتوزيعها حسب طبيعة نشاطها ، وإقامة الفنادق خدمة للتجار، مع تفعيل دور المحتسب، وتحديد نظام التسعير لوضع حدَّ لكلَ أشكال الغشَ والتدليس.

## Abstract

The sultans of Zyani state were attached to maintained security and stability.They secured tran sportations and punished those from the tribes against the authority and the high way men Who steal mony and attack caravans So they started new systems and made various trade relation ships between the north and south of the state .In addition to that they gane potential interst of the external traele ,by providing the mamkets for the trading activitg which is known by its well-organized and good distribwtion occording to the natureof its activity. Also they constructed hotels for merchants, and activated the role of the accomtant to limitale the system of prise as an end to all shapes of cheafing.

## المقدمة

على الرغم من تزايد العناية خلال السنوات الأخيرة بالتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للغرب الإسلامي عامة والمغرب الأوسط على وجه الخصوص، فإن الكثير من القضايا لا تزال محل بحث ونقاش، نظرا لشحة المادة المصدرية وقلة الدراسات الحديثة بقدر يسمح بالتتبع والتحليل والمقارنة .

يتناول هذا العمل « دراسة تاريخية للمجتمع والاقتصاد في تلمسان خلال العصر الزياني في الفترة المحددة (٧ – ٩هـ /١٣ – ١٥م) » حسب ما أوردته كتب الرحلة و النوازل والجغرافيا كمادة مصدرية للواقع المعاش من خلال مبحثين رئيسين :

المبحث الأول : جعلته بعنوان المجتمع الزياني في تلمسان، حاولت من خلاله أن أقف على طبيعة المجتمع وخصوصياته الدّينية والعرقيّة ، موضّحًا ما كانت تشكّله الفئات الاجتماعيّة على اختلاف مستوياتها من تأثير واضحٍ في الحياة السّياسيّة والاقتصاديّة والثّقافيّة، كلٌّ حسب درجة انتمائه ، وقدرة تأثيره في السّلطة والرّعيّة ، في مجتمع لا يؤمن بالعصبيّة والتميّز ولا يحتكم لعادات وتقاليد ملوكيّة .

المبحث الثاني: كان بعنوان الأوضاع الاقتصادية، ونظرا لشحة المادة المصدرية وغياب معطيات عددية تتعلق بكميّة الانتاج، فقد اكتفيت باستقراء ما تضمّنته كتب الرحلة والنوازل والجغرافيا من قراءات وصفيّة للنّشاط الاقتصادي وتحليلها، وما يتّصل به من ظواهرٍ مختلفة تجسّد مساعي السّلطة السّياسيّة والنّخبة الدّينيّة في تنظيم القطاعات الحرفيّة والتّجاريّة وإعادة ضبطها على الوفق من المعايير محدّدة، خدمةً للمجتمع وعلى وفق ما تقتضيه الشّريعة الإسلامية .

## المبحث الأول : المجتمع الزياني

### أولا : أثر بعض العناصر السّكانية للمجتمع

أ ) **البربر** : شكّل البربر السّواد الأعظم في البناء الاجتماعي للمجتمع الزيّاني، فيما يعرف بقبيلة زناتة التي استوطنت المغرب الأوسط منذ العصور القديمة وكان لها تأثير واضح في الحياة الاجتماعية والسيّاسية. (١)

وفي شأن ذلك يقول ابن خلدون: « فاعلم أنّ جيل زناتة في المغرب، جيل قديم، معروف العين والأثر... والأكثر منهم بالمغرب الأوسط ، حتى أنّه ينسب إليهم ويعرف بهم فيقال وطن زناتة ». (٢)

وقد أطلق اسم زناتة جغرافيا على السّهل الواقع في الشّمال الغربي من تلمسان، هذه المدينة التي أسّسها بنو يفرن في العصور القديمة، وكانت منطقة التوطّن لقبيلة زناتة ذات الفروع المتعددة وثاني أقوى القبائل بعد صنهاجة.(٣)

ومن جملة الفرق الزناتية التي سكنت تلمسان وضواحيها ، يذكر ابن خلدون :

«ولهم شعوب أكثر من أن تحصى مثل مغراوة وبني يفرن وجراوة وبني يرنيان ووجديجن وواسين... وبني مرين وتوجين وبني عبد الواد وبني راشد...وفي كلّ واحد من هذه الشّعوب بطون متعددة ، وكانت مواطن هذا الجيل من لدن جهات طرابلس إلى جبل أوراس والزّاب إلى قبلة تلمسان ثم إلى وادي ملويّة ، وكانت الكثرة والريّاسة فيهم قبل الإسلام لجراوة ثم لمغراوة وبني يفرن ».(٤)

وجيل زناتة في بلاد المغرب ، فيما يعرف بالطبقة الثانية(٥) هي زناتة المسلمة المستعربة التي تأثرت بالغزوة الهلاليّة، وأخذت من عادات وتقاليد العرب ، وفي ذلك يقول ابن خلدون: «وهم لهذا العهد آخذون من شعار العرب في سكنى الخيّام، واتخاذ الإبل وركوب الخيل والتّقلب

في الأرض، وإيلاف الرحلتين، وتخطّف النّاس من العمران والإبانة عن الانقياد إلى النصفة، وشعارهم بين البربر اللّغة التي يتواطنون بها، وهي مشتهرة بنوعها عن سائر رطانة البربر».[٦] فهم على ذلك زناتيون متعربون في أسلوب الحياة والتفكير ، فقد تعلّموا من العرب الهلاليّة سكن الخيّام، وجعلوا من الإبل والخيل وسيلة للتنقل والترحال، وصاروا يتكلمون لغة العرب لكنّها مازالت ممزوجة بألفاظ وعبارات زناتية، وما إلى ذلك من مظاهر الحياة وطرق العيش، وهي ليست من خصال العرب الأوائل ولكنّها من خصال العرب المستعجمة، لما كان من استعجام ألسنتهم وفقدانهم اللّغة العربيّة السّليمة، ومن هؤلاء عرب بني هلال بن عامر بن صعدة، وبني سليم بن منصور. [٧]

أمّا مغراوة فقد كان موطنها بنواحي الشلف ، حيث استقلّ سلطانها منديل بن عبد الرحمن بتلك النّاحية، وشكّل مملكة شملت مليانة وتنس وشرشال وما جاورها، وتوسّعت إلى متّيجة، ثم إلى جبل ونشريس ، فشملت الكثير من بلاده ثم أزاحهم عنها بنو عطيّة الحيو وقومه من بني توجين المجاورين لهم في أعلى منطقة الشلف، أمّا بنو عبد الواد فقد أحكموا سيطرتهم على نواحي تلمسان، بينما تمكّن بنو توجين من المنطقة الممتدة بين الصّحراء والتلّ من بلدة المريّة إلى جبل ونشريس، وهكذا أصبح الخطر قائما على حدود بني عبد الواد من قبل مغراوة وبني توجين. [٨]

وبرز من بطون بني توجين: بنو يدللتن ، وبنوقمري ، وبنومادون ، وبنوزنداك ، وبنو وسيل ، وبنو قاضي، وبنو مامت، ويجمع هؤلاء الستّة بنو مدّن ، ثم بنو تيغرين ، وبنو يرناتن، وبنو منكوش، ويجمع هؤلاء الثّلاثة بنو سرغين، ونسب بني زنداك دخيل فيهم، وإنّما هم من بطون مغراوة. [٩]

لم يستقر أمر بني توجين ، ودخل بعضهم في صراع مع بعض، فضعف أمرهم وتلاشت قوتهم، وتغلب بنو عبد الواد على عامّة أوطانهم وأحيّائهم، وانضمّ إليهم بنويرناتن وبنويدللتن، وبقي بعض منهم بجبل ونشريس إلى أن انقرضوا.[١٠]

أمّا بني يفرن فلم تدم سيطرتهم على إقليم تلمسان طويلاً ، فقد دفعت الغزوة الهلاليّة فروعا من لوّاتة وهوّارة إلى الغرب من بينهم بنو عبد الواد، فاستقروا في أراضي المراعي جنوب وهران، وهناك عاشوا حياتهم البدويّة واختلطوا مع بني يفرن وأصبحت لهم السّيادة عليهم، ثم اكتسبوا بعد ذلك حقّ الاستيطان في منطقة وهران ومايليها غربا حتىّ تلمسان، واشتدّ ساعدهم بتأيّيد الموحّدين لقاء معاونتهم، ثم عهد إليهم بتلمسان فاستقروا بها وفي ماحولها وحصنوها، وأصبحت إقطاعا ثابتا لهم .[١١]

**ب ) العرب**

يعود اتّصال العرب بمنطقة المغرب الأوسط إلى بدايات الفتح الإسلامي أثناء القرن الثّاني للهجرة ، ولم يستوطنوها إلاّ في أواسط القرن الخامس الهجري [١٢] ، حين شهد المغرب حدثا هاما غيّر ماكان عليه العرب وجعلهم عنصرا مؤثّرا في التركيبة السكانيّة للمنطقة ، وتمثّل هذا الحدث في الهجرة الهلاليّة [١٣] أو كما يسميها بعض المؤرخين بالغزوة الهلاليّة. [١٤]

ومن بين القبائل التي حلّت بأرض المغرب : بنو سليم ، بنو هلال وأحلافهم من الحشم والخلط والمعقل[١٥] ، أمّا بنو هلال[١٦] فقد توطّنوا بين المسيلة وورقلة في المغرب الأوسط ، وأصبح لهم إقطاع[١٧] ببلاد الحضنة وقسنطينة وبجاية[١٨] بينما امتدت مضارب قبائل المعقل[١٩] من تلمسان إلى البحر المحيط، حيث كانت مواطنهم بقفار المغرب الأقصى، مجاورين لبني عامر من زغبة في مواطنهم من قبيلة تلمسان.[٢٠]

لقد كانت لهذه القبائل ببطونها المختلفة تأثيرات كبيرة في علاقاتها بالدولة العبد الواديّة من جهة ، ودول الجوار من جهة أخرى نظرًا لما تشكّله القبليّة كوحدة إداريّة ضمن نظام الدّولة، وهو ما أكّده عبد الباسط بن خليل المصري بقوله :« من كان معه أمير العربان راج أمره، ومن كان عليه كان في أدبار وتخوّف ». [٢١]

فمنذ بداية عهد الدولة أحسّ يغمراسن بن زيّان بضعف موقفه تجّاه جيرانه ، خاصة أعراب المعقل ، فسارع إلى استقدام قبيلة بني عامر من أوطانهم وأقطعهم أراضي حول تلمسان لصدّ أعراب المعقل والذود عن دولته فكانوا بذلك أحلافًا له ضدّ خصومه وأعدائه من بني مرين وغيرهم . (٢٢)

يقول ابن خلدون: « فلما ملك يغمراسن بن زيّان تلمسان ونواحيها ، ودخلت زناتة إلى التلول والأرياف ، كثر عبث المعقل وفسادهم في وطنها فجاء يغمراسن ببني عامر هؤلاء من محلاّتهم بصحراء بني يزيد وأنزلهم في جواره بصحراء تلمسان كيّادا للمعقل ومزاحمة لهم بأقيالهم فنزلوا هناك، وتبعتهم حميان من بطون بني يزيد ... فصاروا في عداد بني عامر لهذا العهد».(٢٣)

ولما سقطت الدولة العبد الواديّة على يد أبي الحسن المريني، هرب جلّ بني عامر إلى الصّحراء ، وعادوا بعودة الدولة محالفين لأبي سعيد عثمان الثّاني، وعندما انهارت الدولة للمرّة الأخرى تركوا البلاد وهاجروا إلى الصّحراء وعلى رأسهم شيخهم صغير بن عامر، حتىّ نهوض أبي حمّو موسى الثّاني ، فكانوا عصبة له وحاميّة لدولته. (٢٤)

يقول ابن خلدون: « ولما هلك بنو عبد الواد وأفترق جمعهم ، فرّ صغير إلى الصّحراء على عادته، وأقام بالقفر يترقب الخوارج ولحق به أكثر قومه من بني معروف بن سعيد، فأجلب بهم على كل ناحية ، وخالف أولاد حسين بالمعقل على السّلطان أبي عنان أعوام خمسة وخمسين وسبعمائة ... وأوقعت بهم عساكر بني مرين ... وأنحنوا فيهم قتلاً وأسرًا ولم يزالوا كذلك شريدا في الصحراء ، وسويّد وبنو يعقوب بمكانهم من المجالات ، وفي خطّهم عند السّلطان حتىّ هلك السّلطان أبو عنان وجاء السّلطان أبو حمّو أخو السّلطان أبي سعيد عثمان لطلب ملك قومه بتلمسان» (٢٥) وإلى جانب ولاء بني عامر لبني عبد الواد ، فقد أثبت عرب سوّيد من بني زغبة تحالفهم مع يغمراسن بن زيّان، ومناصرتهم له في حروبه المختلفة ضدّ بني مرين وبعض قبائل المعقل مثل بني عبيد الله(٢٦) الذين كانوا في عداء تام وفي صراع مستمر

مع يغمراسن، حتى يقال إنّه غزاهم اثنتين وسبعين مرة .[٢٧] ولما استقرّ أمر هذه القبائل واستفادت من تحالفها مع بني عبد الواد، لم تجد من يقف في وجهها ويصدّ عدوانها في البلاد « فتشجعت على شنّ الغارات والأجلاب بخيلها ورحلها على الحواضر والبوادي ، ومن هنا نشأت عندها فكرة الاستيلاء على المغرب والتغلّب عليه ، فكانت أجلاف العربان من بني سليم وبقايا بني هلال يعيثون في الأرض فسادًا ويأخدون الإتاوات من الناس ظلمًا وعدوانًا ». [٢٨]

## ج ) الأندلسيّون

إلى جانب البربر والعرب ، شهد المغرب الأوسط وافدًا جديدًا ساهم بقدر كبير في إثراء البنية الإجتماعية والتأثير بشكل واضح في شؤون الحياة والسياسة، بحكم الانفتاح الذي أبداه سلاطين الدولة الزيّانية في مجتمع لايؤمن بالعصبيّة والتميّز ولا يحتكم لعادات وتقاليد ملوكيّة[٢٩] يتعلق الأمر بالأندلسيّين، ويطلق هذا اللّفظ على المسلمين من أهل الأندلس باستثناء البربر الطارئين كقوّة سياسيّة مسيطرة مرابطيّة كانت أم موحديّة ، وبصرف النظر عن الأصول الأولى لهذه الجماعة عربيّة كانت أم بربريّة أم من السّكان الأصليّين الذين أسلموا فاندمج أحفادهم في المسلمين، أم العبيد الذين أعتقوا فغدوا جزءً من مجتمع أسيادهم الأوّليين بالولاء. [٣٠]

كان تردد الأندلسيّين على المغرب الأوسط منذ القرن (٨٠٧هـ/ ١٣م ) وتواجدوا بكثافة في المجتمع الزيّاني مع نهاية القرن الثامن وطيلة القرن التاسع للهجرة /الرابع عشر، والخامس عشر الميلادي، خاصة بعد حروب الاسترداد التي استهدفت معاقل المسلمين فسقطت مالقة سنة (٨٩٢هـ/١٤٨٧م) والمريّة سنة(٨٩٣هـ/ ١٤٨٨م) وبسطة ووادي آشي سنة (٨٩٥هـ/ ١٤٨٩م) وكانت بدايةً لنهاية دولة الإسلام في الأندلس بسقوط غرناطة سنة (٨٩٧هـ/ ١٤٩٢م )[٣١] وينقل لنا صاحب كتاب " نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر" بعض حركات الهجرة التي وقعت على إثر سقوط غرناطة فيقول :

« وخرج ما بقي من أهل مالقة في ثلاثة أيام إلى باديس، وأهل المريّة في نصف اليوم إلى تلمسان، وخرج كثير من أهل غرناطة إلى بجاية ووهران »[٣٢] وهو مايؤكد اختيارهم لمدن المغرب الأوسط .

لقد كان هؤلاء الوافدون من أهل الأندلس أصحاب مال وصنائع وثقافة ، تفوّقوا على سواهم في العلوم بصفة عامّة وفي الفنون والآداب بصفة خاصّة ، ونالوا مكانة متميّزة في الوسط الإجتماعي وجلبوا اهتمام السّلاطين والحكاّم .[٣٣]

وإذا نظرنا إلى هذه المعطيات من منظار إجتماعي سياسي، فقد أصبح العنصر الأندلسي أكثر منافسة وتأثيرًا من غيره في إدارة شؤون البلاد ، ويتّضح ذلك من خلال الأدوار التي أسندت لهم طيلة حكم بني زيّان.

ومن الأسر الأندلسيّة التي اشتهرت بأدوارها بنو الملاّح القرطبيّون الذين نزلوا بتلمسان فاتّخدهم السّلطان أبو حمّو موسى الأوّل ( ٧٠٨ – ٧١٨هـ/ ١٣٠٨–١٣١٨ م) أمناء على بيت المال وفوّض إليهم ضرب السكّة من دنانير ودراهم ، وأسند لهم مناصب سلطانيّة كوزارة المال والحجابة ، لما يتمتعون به من خبرة ونزاهة فبرز منهم عدد من الوزراء نذكر منهم : محمّد بن ميمون بن الملاّح الذي جمع بين الوزارة والحجابة في آن واحد ، محمّد الأشقر بن محمّد بن ميمون بن الملاّح ، إبراهيم بن محمّد بن ميمون وهو حفيد أوّل وزير للسّلطان أبي حمّو، عليّ بن عبد الله بن الملاّح ، ومن الأسر النازلة بتلمسان أيضًا آل الآبلي الذين استعملهم السّلطان يغمراسن ( ٦٣٣ – ٦٨١هـ/ ١٢٣٦–١٢٨٣ م ) في قيادة الجيش وإدارة المعارك [٣٤] وبرز منهم والد أبو عبد الله محمّد إبراهيم بن أحمد الآبلي [٣٥] الذي كان قائدًا بهنين (مرفأ تلمسان العسكري) [٣٦] وقد وظّف عددًا من الكتّاب من أصل أندلسيّ من بينهم : الفقيه أبو بكر محمّد بن عبد الله بن داوود بن خطّاب الغافقي المرسي. [٣٧]

إلى جانب المراتب الإداريّة والمناصب السّلطانيّة التي تعكس مكانتهم لدى الأسرة الحاكمة، فقد اندمج الكثير منهم في المجتمع وشاركوا العامّة في المهن المختلفة ، فسكن بعضهم

البوادي واحترفوا وأتقنوا أساليبها ، فغرسوا الأشجار وأقاموا البساتين ، واختصّ آخرون في البناء، في حين اتجّه بعضهم نحو التجارة والصّناعات الحرفيّة المختلفة، ولاشك أنّ الأندلسيّين قد أدخلوا في هذين القطاعين من النشاط فروعًا وطرقًا جديدة . (٣٨)

لقد كان للهجرة الأندلسيّة أثر واضح في النّهضة العلميّة والثّقافيّة التي شهدها المغرب الأوسط من خلال إسهامات العلماء الوافدين(٣٩) ودورهم في تفعيل الحياة العلميّة والفكريّة على رغم تدهور الأوضاع الإجتماعية والسياسية، إذ اشتغلوا بالتدريس فكوّنوا خلفاءهم من العلماء والأئمّة، وشاركوا في التأليف فتركوا تراثًا علميًّا زاخرًا ، وعن التأثير الثقافي للعنصر الأندلسيّ، تشير احدى الدراسات(٤٠) إلى احتكار الأندلسيّين لقطاع التعليم في المغرب الأوسط لاسيّما في المدن والحواضر ، ودورهم في تدريس علوم اللّغة والآداب، والفنّ والموسيقى، وبينما كان السكّان المحلّيون مسيطرين بصورة تكاد تكون دائمة على ميدان الشريعة والعلوم الدينيّة ، كان النّجاح حليف الأندلسيّين في الميادين الأدبيّة الخالصة كافة من الخطّ والنّحو إلى البلاغة والشّعر والتّاريخ والموسيقى. (٤١)

**د) اليهود** تشير العديد من الدراسات (٤٢) إلى تواجد اليهود في بلاد المغرب منذ القرن الأول الميلادي مؤكّدين بذلك على أنّ أوّل استقرار يعود إلى الحقبة الرّومانيّة ، ثم انتظمت حركات الهجرة على مدد مختلفة خلال الحكم الوندالي والبيزنطي، واستمرت بشكل ملفت بعد الفتح الإسلاميّ (٤٣) .

لقد كانت حملات الاضطهاد والمتابعة التي استهدفت سكّان الأندلس من المسلمين واليهود مع نهاية (٠٨ هـ / ١٤ م ) واستمرّت (٠٩ هـ / ١٥ م ) لاسيّما في مملكة قشتالة وكتالونيا وجزر البليار وغرناطة سببًا في تدفق عدد كبير من اليهود على المدن السّاحليّة والدّاخليّة للمغرب الأوسط(٤٤) ويبدو أنّ القادمين الجدد قد حظوا برعاية الحكّام والسّكان المسلمين(٤٥) .

وحول ظروف استقرار اليهود بتلمسان ، تشير إحدى الدراسات [٤٦] إلى استقبالهم من طرف السّلطان أبي العبّاس أحمد العاقل (٨٣٤ – ٨٦٦ هـ / ١٤٣١– ١٤٦٢ م) ومنحهم قطعة أرض( المرجة ) قرب أسوار المشور، فبنو بها دورهم واستقرّوا بها، وأصبحت تدعى بدرب اليهود ، كما منحت لهم الحريّة التي أقرّها الشّرع في ممارسة شعائرهم الدينيّة وأنشطتهم التجاريّة، لهم من الضّمان والأمان مايكسبهم حقوق الرعايا ويلزمهم بواجبات مماثلة ، إلاّ إذا نقضوا العهد كأهل ذمّة [٤٧] وفي مقابل ذلك يلتزمون بدفع الجزيّة كشرط من شروط عقد الذمّة وتقدر بأربعة دنانير،أو أربعون درهمًا بالوزن الشّرعيّ عن كل شخص في كل عام [٤٨] .

وكانت لهم تنظيمات دينية شملت مايعرف بمجلس الطائفة يرأسه « المقدّم » ويدعى كذلك « الشيخ » وهو القائد الرّوحي للطّائفة اليهوديّة المحليّة التي تجمّعت وتوحّدت حوله نشاطاتها الدينيّة وسلوكاتها الإجتماعيّة ، فهو الذي يسيّر نظامها القضائيّ الدّاخليّ ، ويمثّلها بصورة رسميّة لدى السّلطة الحاكمة بتلمسان[٤٩].

ويلاحظ أنّ هؤلاء اليهود المهاجرين قد نقلوا إلى المغرب الأوسط علاوة عن ثقافتهم الدينيّة وعاداتهم وأخلاقهم ، ما اكتسبوه من مميّزات خاصّة وعامّة في المجتمع الأندلسيّ الإسلاميّ ، فكان منهم من بلغ درجة كبيرة في العلم والآداب كما كان منهم أطبّاء ، وتجّار، وصنّاع ، وأصحاب حرف ، وفنون [٥٠].

فالصيّاغة والصيرفة لم تكن بيد المغاربة المسلمين في أوّل الأمر ، ولم تكن لهم كذلك مهارة كبيرة في صنع الأقمشة والملابس النسويّة على الخصوص كنظم العقد ، ونسج القيطان، وحبك السفيفة، وتطريز القفطان بالصقلي، وإنّما انتقلت إليهم عن طريق اليهود الذين كانوا يباشرونها ويتفنّنون بها [٥١].

ومن بين الشّخصيّات اليهودية التي برز حضورها القويّ في الدّولة الزيّانية اليهوديّ إسحاق هاقادوش ، المعروف بـ : « ربّ النّقاوة » ( Le Maitre Hakadosh Enakaoua Isaac) الذي كان طبيبًا خاصًا للسّلطان أبي العبّاس أحمد العاقل (٨٣٤ – ٨٦٦ هـ / ١٤٣١–

١٤٦٢ م ) وأحد المقرّبين إليه ، والحاخام إسحاق برفت بارشيشت ( Barfat Bar chechet Isaac) المعروف باسم ريباش والذي فاز بتعيين سلطان تلمسان له حاخامًا كبيرا بفضل مساعي طبيب السلطان الخاص [٥٢] .

وتذكر إحدى الدّراسات [٥٣] اليهودي أستروك كوهين ( Astruc Cohen ) الذي نال مكانة أكبر لدى الزيانيّين، بحيث كان مستشارًا للسّلطان ورئيسًا للطّائفة اليهوديّة في تلمسان قبل مجيئ ريباش ، هذا إلى جانب شخصيات ثقافية أخرى نذكر منها : علاّل بن سعدون، يوسف الأشقر ، أبراهام الصرفاتي .

## ثانيا: فئات المجتمع الزيّاني وأثرها

### أ ) فئة الحكّام

ارتبط مصطلح الفئة الحاكمة بالوظائف السّلطانية المختلفة ومراتبها وما يتّصل بها من مهام مسندة حسب التّدرج الذي تحدث عنه ابن خلدون ، إذ يرى أنّ مهام السّلطان الكبرى لا تزيد عن أربع :

الأولى تختص بحماية الرعيّة كافة ، وأداتها الجيش والسّلاح ، والثانية تتعلق بالمكاتبات والمراسلات للخارج والداخل ، وإصدار الأوامر لمن هو بعيد عن السّلطان وغائب عنه ، والثالثة تهتمّ بشؤون الجبايات والإنفاق وما يتبعها من حسابات ، والرابعة تنشغل بحجب السّلطان ومنع النّاس عنه ، لكي يتفرغ للنّظر فيما يصلح حالهم [٥٤] .

يبدو أنّ الصّورة التي كوّنها ابن خلدون لمراتب الملك والسّلطان ، هي وصف دقيق للطبقة الحاكمة التي تعين السلطان في تسيّير شؤون الدّولة ، وتعكس في آن واحد المكانة الإجتماعيّة التي تحضى بها دون غيرها من فئات المجتمع الزيّاني .

لقد كان سلاطين بني عبد الواد محلّ تبجيّل واحترام ، يستأثرون بجميع السّلطات ويتلقّبون بالالقاب المختلفة يبرزون سلطتهم بما وضعوه من مراسيم ، إذ كانوا يمرّون في أبّهة ومحفوفين بالحرس وسط قرع الطّبول والأبواق وكثرة الألويّة والرّايات[٥٥]، وهي من مظاهر الأبّهة والبذخ التي تضفي على موكب السّلطان رونقا وهيبة تميّزه عن غيره .

وتشير المصادر إلى اعتماد شارات الملك والسّلطان خاصّة في الأعياد والحروب منذ مدة حكم السّلطان أبي تاشفين الثّاني (٧٩١ – ٧٩٥ هـ / ١٣٨٨– ١٣٩٣ م ) ، عملاً بوصايا والده ابي حمّو موسى الثّاني (٧٦٠ – ٧٩١ هـ / ١٣٥٩– ١٩٣٨٩م ) بقوله : « يابنيّ ويستحسن للملك أن يتّخذ رجالاً أنجادًا كفاة أطوادًا ، يكونون مشّائين إذا ركبت، ومنصرفين حيثما سرت ، يكون لهم ترتيب في اللّباس، ويمتازون بذلك على سائر النّاس ، ويتزّينون بالأقبيّة الحسان المختلفات الألوان، وبأيديهم الحراب عليها صغار الرّايات، من أنواع الحرير مختلفات لأنّهم ممّا يزيدون في بهاء الملك وجماله، وفخامته وكماله ، وهم مما يتزيّن به الملوك والأمراء».[٥٦]

أمّا عن إقامتهم فتصف إحدى الدّراسات اهتمامهم بمظاهر السّلطنة في إقامتهم لمقرّات جديدة، إذ لم يكتف يغمرّاسن (٦٣٣ – ٦٨١ هـ / ١٢٣٥– ١٢٨٢ م) بقصر تاغرارت الموحّدي القديم، بل أقام قصرًا جديدًا شاهدًا على ملكه « واتّخد أمراء بني زيّان المشور مقرًّا رسميًّا لإقامتهم ، ففيه مساكنهم ومسجدهم ومستودعاتهم ، وفي بيوته يقيم الحشم وينزل الأمراء الأجانب وبين أرجائه تنظّم حفلات الاستقبال الكبرى » [٥٧].

ولم يلبث المشور أن عرف ازدهارًا جديدا في عهد أبي حمّو موسى الثّاني (٧٦٠ – ٧٩١ هـ / ١٣٥٩– ١٣٨٨م ) ممّا يؤكّد الحياة الخاصّة للطبقة الحاكمة « لقد كانت الزّرابي تبسط على السّطح وعلى طول الحائط تصطّف المتاكي ، ويتجمّع أفراد البلاط حول السّلطان جالسين على المتاكي مقابل المانجانا ، ويجلس السّلطان على كرسيّ عال ، بينما يجلس مباشرةً على جانبيه أكابر أقاربه وعظام المملكة ، كلّ على حسب رتبته ، وتتجمّع الرعيّة على الزّرابي خافضين أصواتهم احتراما لجلالة الملك، ويتجوّل بينهم خدم يلبسون حريرًا مزركشًا يقدّمون جميع

أنواع الطيب...وعند اللّيل يدخل رجال حاملون طاولات عريضة ومنخفضة مملوءة بالطّعام، وعندما تفرغ الصّحون من الطّعام تبدّل بأخرى بها خضر وفواكه»[٥٨].

وعن العلاقة بين السّلطان وأعوانه فقد حدّد أبو حمّو موسى الثّاني (٧٦٠ – ٧٩١ هـ / ١٣٥٩– ١٣٨٨م ) لولده السّلطان أبي تاشفين الثّاني (٧٩١ – ٧٩٥ هـ / ١٣٨٨– ١٣٩٣ م)، مجموعة من الوصايا السياسيّة التي تضمن السّير الحسن لدولته ودوام استمراريتها ، بقوله : « اعلم يابنيّ أنّه ينبغي لك أن يكون أوّل داخل عليك مزوارك الموصوف ، وعونك المعروف ، ليعرّفك من ببابك ، من وزرائك وحجّابك ، وأرباب دولتك وكتّابك ، فأولّ من يدخل عليك كاتبك ووزيرك، إذ بهما صلاحك وتدبيرك ، وذلك أهمّ ماتبتدئ به من أمرك لتلقي إلى الكاتب ما أردت من سرّك، ويعرض عليك الكتب الواردة من أقطارك وأمصارك، وذلك بحضور وزيرك المخصوص برأيك وتدبيرك ... وبعد دخول وزيرك وكاتبك ، وقضائك ما أردته من مآربك ، يدخل صاحب أشغالك، الموكّل بجبايات أموالك، يعرّفك بما تجمل وتصير من مالك، وبمحاسبات عمّالك، وبجميع أشغالك المختصّة بدارك، في إيراداك وإصدارك... ثم يدخل صاحب شرطتك ، وحاكم بلد حضرتك، ليخبرك بما تزايد في ليلتك ، حتى لايخفى عليك شيء من أحوال رعيّتك ..ثم تدعو للدّخول عليك الأقرب فالأقرب من خاصّتك وخلصائك ، وأشياخ قبيلك وأوليائك ، فتشاركهم فيما ظهر لك من أرائك، وتأخد معهم فيما عليهم ومالهم ... ثم تدعو إلى الدّخول أشياخ القبائل ، المقربيّن لخدمتك ، وقوّاد أجنادك المستمسكين بحرمتك .. .» [٥٩]

لقد كان بنوزيّان يختارون وزراءهم وحجّابهم وكتّابهم وقضاتهم من عائلات معيّنة ، من ذلك أنّ أغلب الوزراء لم ينحدروا من سلالة الملك ، إذ كان يخشى كثيرًا طموحهم ، ولكن من جماعات ذات قرابة حصلت لهم خبرة في تصريف شؤون الدّولة [٦٠].

ويبدو أنّ للحاجب في عهد يغمرّاسن ( ٦٣٣ – ٦٨١ هـ / ١٢٣٥– ١٢٨٢ م ) أهميّة تفوق مرتبة الوزير، ويتّضح ذلك من العبارة التي استعملها يحيّ بن خلدون حيث قال: « وحاجبه الأقرب ومساوره الأنصح الفقيه عبدون بن محمّد الحبّاك، من فقهاء الحضرة»[٦١] ويواصل حديثه قائلا : « وخاطبته ملوك الموّحدين بذلك ، وكان ذا رأي سديد وسياسة ، وله في البلد خلف من نمط التّجار أخيار»[٦٢]

ويمكن تشخيص ظاهرة اختيّار الوزراء حسب مقياس الثّقة والقربى فيما قام به يغمرّاسن بن زيّان (٦٣٣ – ٦٨١ هـ / ١٢٣٥– ١٢٨٢ م ) حينما أسند منصب الوزارة إلى بني مقّن وهم إخوة بني زيّان من أولاد طاع الله ، برز منهم الوزير يحيّ بن مقّن ، ويبدو أنّ عثمان بن يغمرّاسن (٦٨١ – ٧٠٣هـ / ١٢٨٢–١٣٠٤ م ) ساير التقليد الذي أورثه إيّاه والده ، حيث اختار غانم بن محمّد الرّاشدي وهو من بني راشد أحد المقربيّن لبني عبد الواد وعصبتهم في أوّل عهدهم(٦٣).

ومن الكتّاب البارزين في البلاط الزيّاني الفقيه الخطيب العالم أبو عبد الله محمّد بن هديّة القريشي، بصير بالوثائق ، مشهور الفضل والدين ، كتب الرسائل عند الملوك الأوائل من بني يغمرّاسن بن زيّان (٦٤)، أمّا بخصوص خطّة الأشغال فقد احتكرها أقرب النّاس إلى السّلطان في مقدمتهم عبد الرحمن بن محمّد بن الملاّح، أبو عبد الله محمّد بن علي العصامي، محمّد بن قضيب الرصّاص، وهي من المراتب السّامية التي لاتسند إلاّ لأهل الثّقة وحسن السيرة وفضيلة الأخلاق (٦٥).

**ب ) فئة العلماء والفقهاء**

شكّلت فئة العلماء والفقهاء مكانة متميّزة في المغرب الأوسط لتعدّد مجالات اختصاصها في المجتمع ، ولارتباطها بشؤون السياسة والحكم ، وقد نالت حيّزًا من وصايا السلطان أبي حمّو موسى الثّاني (٧٦٠– ٧٩١ هـ /١٣٥٩– ١٣٨٨م ) لولده أبي تاشفين الثّاني (٧٩١ – ٧٩٥ هـ / ١٣٨٨– ١٣٩٣ م) ، حيث أمره باتخاد فقيه يخصّ نفسه به ، ويستشيره في أمور الدّين والسّياسة ، فحثّه بقوله : « فلتتخيّر لنفسك فقيهًا عالمًا موسومًا بالصّلاح ، سالكًا طرق الرّشاد والفلاح، يرشد إلى الهديّ، ويهدي إلى الرّشاد ، ويسدّد الأمور ويأمر بالسّداد ، ليبيّن لك ما أشكل عليك من الأحكام ، وما تأتيه من الحلال وتدعه من الحرام وما تقف عنده من الأمور الشرعيّة ، التي هي قوام الملك والرعيّة ، وما يصلح لك من الأمور الدنيويّة والآخرويّة ، ويخولك للموعظة ويذكّرك أحوال الآخرة »(٦٦)

يبدو أنّ الوظائف المسندة لفئة العلماء والفقهاء كثيرة ومتعددة منها : القضاء والفتوى والشّهادة والتّوثيق ، والخطابة والحسبة والنظر على الأوقاف وأموال اليتامى وغيرها من المراتب[٦٧] وربّما مال أكثر الفقهاء إلى توليّ الرتب الشّرعيّة، ولهذا فرّق ابن خلدون بين الوظائف الدينيّة والمدنيّة ، فسمّى الأولى الخطط الدينيّة ، وهي كلّها مندرجة تحت الإمامة الكبرى[٦٨] وسمّى الثانية الخطط السلطانيّة والرتب الملوكيّة كالوزارة والكتابة والحجابة [٦٩] وبحكم الوظائف المتعددة لهذه الفئة ، فقد كانوا مستشارين للسّلاطين وكانوا في أغلب الأحيان موظّفين في الدولة ككّتاب وقضاة ، وأصحاب حسبة . [٧٠]

أمّا عن جهودهم في التّعامل مع السّلطة الزيانيّة فقد كانت متباينة بين مؤيّد و مشارك في الحكم ومعارض رافض لذلك ، ومحايدّ راكن للاعتزال متفرّغ للعلم والتأليف ، وقد شخّص العالم والفقيه أبو العبّاس أحمد الونشريسي تطوّر علاقة العلماء والفقهاء بالسّلاطين والأمراء بقوله : « واعلم أنّ شرّ العلماء علماء السّلاطين ، وللعلماء معهم أحوال ، فكان الصدر الأوّل يفرّون منهم وهم يطلبونهم ... ثم جاء أهل العصر الثّاني فطمحت نفوسهم إلى دنيا ما حصل لهم ، ومنعهم قرب العهد بالخير عن إتيانهم ، فكانوا لا يأتونهم ، فإن دعوهم أجابوهم إلاّ القليل، فانتقصوهم عمّا كان لغيرهم بقدر ما نقصوا من منابذتهم ، ثم كان فيمن بعدهم من يأتيهم بلا دعوة ، وأكثرهم إذا دعي أجاب، فاستنقصوا بقدر ذلك أيضا ، ثم تطارح جمهور من بعدهم عليهم فامتنعوا عن دعاء غيرهم إلاّ على جهة الفضل ومحبة المدحة منهم ، فلم يبقوا عليهم من ذلك إلا النزر اليسير وصرفوهم لأجله في أنواع السخر والخدم إلاّ القليل، وهم ينتظرون صرفهم والتّصريح بالاستغناء عنهم وعدم الحاجة إليهم .» [٧١]

ومن الفقهاء الذين ركنوا إلى الاعتزال رغبة منهم في التّفرغ للعلم والتّأليف أو للعبادة والتّصوف :

الفقيه العالم أحمد بن محمّد بن عبد الرحمن الشهير بابن زاغو المغراوي التلمساني[٧٢] حيث فاق أقرانه ونظراءه في العلم والعرفان وضرب به المثل في الزهد والعبادة ، وحاز قصب السبق في الحديث والأصول والمنطق مع الذّوق السّليم والفهم المستقيم.[٧٣]

ونجد كذلك الفقيه إبراهيم بن يخلف بن عبد السلام التنّسي المطماطي[٧٤] الذي انتهت إليه الرئاسة في التدريس والفتوى في بلاد المغرب ، وذاع صيته حتى بقي السّلطان يغمراسن (٦٣٣ – ٦٨١ هـ / ١٢٣٥– ١٢٨٢ م ) يخطبه للورود على تلمسان ، فيمتنع ، يرد زائرًا ويقيم أشهرًا وينصرف إلى تنس ونزولا عند رغبة فقهاء وعلماء تلمسان ، استوطنها ودرس بها ، وظل بعيدا عن الرتب السلطانية .

ومن أشهر شيوخ التّصوف، العالم والفقيه أبو عبد الله بن أبي بكر بن مرزوق [٧٥] الذي كان يشتغل بالقراءة والفقه والحديث، ثم انكبّ على كتب التّصوف وانقطع للعبادة ، وتجرّد للمطالعة، ونسخ الكتب والمصاحف ، ونال من احترام السّلاطين وتقديرهم ماجعله يتفادى لقاءهم خاصّة في مسجد الطلبة حيث يصليّ الشيخ « فتارة يتلبّس بالنافلة حتى ييأس السّلطان يغمراسن من الانتظار، فينصرف، وتارة يخرج من المسجد دون أن يشعر به السّلطان ». [٧٦]

ومن الفقهاء الذين وقفوا موقف المعارضة للسّلطان والتزموا الجرأة في قول الحقّ والنّصح عن طريق الأمر بالمعروف والنهيّ عن المنكر ، الفقيه العالم أبو العباس أحمد الونشريسي الذي سارع إلى الإعلان عن مواقفه الصريحة من سلاطين بني زيّان منتقدا ما يقومون به من تصرفات غير شرعيّة ، كتقديم الجهّال على العلماء في تولية المناصب الشّرعية كالقضاء والفتوى، وعدها من البدع المحرّمة التي لايجوز السّكوت عنها [٧٧]وعارض سياسة السّلطان أبي عبد الله محمّد المتوكّل(٨٦٦ – ٨٧٣ هـ/ ١٤٦٢– ١٤٦٨ م) واتّهمه بالضعف والاستكانة، وعدم قدرته على تسيّير شؤون الدّولة وإدارة الأحداث بتعقل وحكمة [٧٨] و كيف ما كان السبب « فقد حصلت له كائنة من جهة السّلطان في أوّل محرّم من عام أربع و سبعين و ثمانمائة (٨٧٤ هـ / ١٤٦٩م ) فانتهبت داره ، وفرّ إلى مدينة فاس واستوطنها ».[٧٩] أمّا الفقيه أبو

العبّاس أحمد بن يوسف الرّاشدي الملياني[٨٠] فقد رفض البقاء في مدينة تلمسان مدّة طويلة بسبب معارضته لسياسة بني زيّان حيث عاب عليهم تدهور الأخلاق وانتشار الفساد ، وانتقد موقف السّلطان أبي عبد الله محمّد الخامس بن محمّد الثّابتي (٩١٠ – ٩٢٢ هـ / ١٥٠٥– ١٥١٦ م) نتيجة لمسالمته للاسبان ومصالحته لهم بعد احتلال مدينة وهران ، وظلّ ينتقد سياسة أبي حمّو الثّالث أبن محمّد الثّابتي (٩٢٢ – ٩٣٤ هـ / ١٥١٨– ١٥٢٨م ) إزاء مواقفه المخزيّة من العدوّ، وسارع للاتّصال بالأتراك إلى جانب أهل تلمسان لمقاومة الإسبان. [٨١]

لقد كان هؤلاء العلماء والفقهاء إنموذجًا لفئة فضّلت الابتعاد عن الحكّام ، ورفضت أن تكون موضع تسخير لخدمتهم والدّعاية لشخصهم ، والكتابة باسمهم ونحو ذلك ، ولعلّ من أسباب انعزال بعضهم والتجائهم إلى الزّهد والتّصوف هو ضغط السّلاطين عليهم مع جهرهم بالظّلم والسّكوت عن المنكر والفساد . [٨٢]

ومن الفقهاء الذين ثبت اختيارهم من طرف السّلطة الحاكمة في تلمسان ، واسهموا بقدر كبير في استقرار الدّولة وتأطير شؤون الرعيّة فئة القضاة ، إذ يتم اختيارهم من ذوي المكانة في العلوم الشّرعية على مذهب الإمام مالك ، ويعيّنون من قبل السّلطان للنّظر في القضايا الشّرعية، نذكر منهم عائلة العقباني التي برز منها عدد من القضاة أمثال : قاسم بن سعيد بن محمّد العقباني[٨٣] علم الأعلام ، الفقيه الإمام وليّ قضاء تلمسان في صغره ، وعكف على تعليم العلوم وتدريس المعدوم منها والمعلوم ، فأفاد الأفراد وأمنع جهابذة النّقاد ، حضر جنازته السّلطان أبو العبّاس أحمد العاقل (٨٣٤ – ٨٦٦ هـ / ١٤٣١– ١٤٦٢ م ) فمن دونه، والقاضي ابراهيم بن قاسم بن سعيد العقباني[٨٤] من كبار علماء تلمسان ، حصّل وبرع وألّف وأفتى ، وتولىّ قضاء الجماعة بتلمسان بعد عزل ابن أخيه ، والفقيه العالم محمّد ابن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني [٨٥] من كبار علماء تلمسان وفقهائها ، وليّ قضاء الجماعة وكان عارفا بالنّوازل ذا ملكة في التّصوف .

وإلى جانب عائلة العقباني ، برز عدد آخر من القضاة من أمثال : أبو عبد الله محمّد بن أحمد بن عمر التميمي [٨٦] و محمّد أبو عبد الله التلمساني المعروف باسم حمّو الشريف[٨٧]

أمّا عن الوضع الاجتماعي فقد كان القضاة يتقاضون مرتّباتهم من بيت المال ، إذ لا يزيد راتب قاضي القضاة في بجاية عن خمسة عشر دينارا شهريًّا ، وهي أجرة لا توافق مكانتهم الاجتماعيّة كموظّفين كبار في الدّولة ، خاصّة إذا ماقورنت بما يتقاضاه قاضي الجماعة بفاس خلال المدة نفسها ، فكانت أجرته تقدّر بمثقال من الذّهب يوميًّا ، إلى جانب بعض الامتيازات من كسوة وإقطاع ومؤونة .[٨٨]

وفي مقابل ذلك نوّهت بعض المصادر بسعة حال بعض القضاة والفقهاء في تلمسان ، حيث ذكر ابن مرزوق أنّ هؤلاء أصحاب أموال وثروة أكثر من أن توصف . [٨٩]

وعلى الرّغم من هذا فقد امتنع عدد آخر من القضاة من أخذ الأجرة وعدوا المال الذي يتقاضاه نظراؤهم من القضاة مالاً حرامًا رغم ضيق أحوالهم وسوئها ، واستعان بعضهم بكتب الصدقات . [٩٠]

ومن العلماء الذين ارتبط اسمهم بسّلاطين بني زيّان وسخّروا أقلامهم في هذا الاتجّاه: محمّد ابن عبد الله بن عبد الجليل التنّسي [٩١] الذي نبغ في علوم عصره خاصّةً رواية الحديث والأدب والتّواريخ وأسهم بقدر كبير في حركة التأليف والتدريس ، أما تآليفه فليست كثيرة ، إذ لايزيد عددها على ثلاثة ، منها كتابه" نظم الدر والعقيان في شرف بني زيّان وذكر ملوكهم الأعيان"، الذي أهداه إلى السّلطان محمّد المتوكّل (٨٦٦ – ٨٧٣ هـ /١٤٦٢– ١٤٦٨ م) بهدف التّقرب منه وكسب ودّه وتعاطفه بإظهار مكانة بني زيّان في التّاريخ والنّسب والآثار، ولذلك مدح السّلطان وبرهن على شرف أسلافه، وأبرز مدى اسهامه في الحضارة ونفوذ دولتهم[٩٢] ، أمّا كتابه " راح الأرواح فيما قاله المولى أبو حمّو من الشّعر وقيل فيه من الأمداح ، وما يوافق ذلك على حسب الإقتراح " فهو كتاب في الأدب يضمّ شعر السّلطان أبي حمّو والمدائح التي قيلت فيه وما خطر ببال المؤلف من النكت والأمثال والطّرائف ، فكان من الموضوعات التي تقدّم إلى

مجالس السّلاطين للتّسليّة والتّرفيه . [٩٣] وقد برز أبو زكرياء يحيّ بن خلدون من خلال تصنيفه لكتاب "بغية الروّاد في ذكر الملوك من بني عبد الواد" بطلب من السّلطان أبي حمّو موسى الثّاني (٧٦٠- ٧٩١ هـ /١٣٥٩- ١٣٨٨م ) بغرض تخليد تاريخ الدّولة الزيّانية والوقوف على إنجازات سلاطينها وسيرتهم. [٩٤]

وتشير إحدى الدراسات إلى الفقيه والعالم الأصولي محمّد بن عبد الرحمن الحوضي [٩٥] الذي كان ينشد المال والجّاه والحضوة في بلاط السّلطان أبي عبد الله الزيّاني ، لاينّبه إلى الخطر الدّاهم ، بل ينشد رضى ملكه بقطع النّظر عمّا يحدث في المملكة من مظالم وفوضى وحروب . [٩٦]

**ج ) أصحاب المهن والصنائع**

تشكّل هذة الفئة طبقة اجتماعية متميّزة من حيث تعدّد أشكالها وتنوّعها في المغرب الأوسط، وتضمّ أنشطة عدّة مختلفة تفسّر في مضمونها المستوى المعيشي والمكانة الإجتماعيّة.

لقد عبرت بعض المصادر عن الوضع المادي المريح لفئة التّجار ، فيذكرهم الونشريسي بقوله : « أكابر التّجار ذوي الأموال الطّائلة »[٩٧] ويصفهم الوزّان بأنّهم « أناس منصفون مخلصون جدًّا وأمناء في تجارتهم ... وهم وافروا الغنى أملاكًا ونقودا »[٩٨] ، وينطبق هذا الوصف على كبار التّجار الذين استطاعوا بفضل نشاطهم تبوأ مكانة اجتماعية راقية ، نظرًا للأرباح الطّائلة التي يجنونها من تجارتهم ،فاجتهدوا في شراء العقّارات وبناء الدّور والقصور وشراء العبيد والخدم ، ونافسوا بذلك أصحاب المناصب العليا من ذوي الدخل الكبير .[٩٩]

أمّا فئة التّجار الصّغار، فلم يكن حالهم كحال أكابرهم فهم يزاولون نشاطهم التّجاريّ بشكل محدود، وفي نطاق ضيّق بين المدن والبوادي[١٠٠]، وعلى رغم ذلك فانهم كانوا يجنون أرباحًا مكّنتهم من تحسين أحوالهم ومستواهم المعيشي[١٠١] ولا شكّ أنّ أرباب الحرفيّين على اختلاف صنائعهم كالعطّارين والورّاقين والقبّابين والخرّاطين والإسكافيّين والسرّاجين والحدّادين والدبّاغين

وغيرها من الصّنائع [١٠٢] كانوا يتمتعون بمستوى معيشي راق جدًّا نتيجة للأرباح التي يحققونها من وراء ترويج منتجاتهم الحرفيّة ، فقد كان أبو زيد عبد الرحمن بن النّجّار من كبار أرباب الحرف بتلمسان يزاول حياكة الصّوف الرّفيع في درب شاكر، وكان أغلب هذا الدّرب له ولخدّامه، يقصده كبار التّجار من المشرق والمغرب للاقتناء منها ، وكان يجني من بيعه لهذا الصّوف ألف دينار في اليوم الواحد[١٠٣] وهو ما يفسّر درجة الغنى والثّروة التي يتمتّع بها إذ تمثّل نمودجًا لكبار الحرفيّين والصنّاع في تلمسان ومختلف مدن الدّولة الزيّانيّة ، ويصف حسن الوزّان حياة هؤلاء بقوله : « والصّناع أناس أقوياء يعيشون في هناء ومتعة ، ويحبّون التّمتع بالحياة ». [١٠٤]

إنّ هذا الوصف الدّقيق الذي يعكس المستوى المعيشي والمكانة الاجتماعيّة المرموقة لا ينطبق في مجمله على بعض الحرفيّين الصّغار الذين كانوا يمارسون عملهم كأجراء لدى أرباب المهن والصّنائع مقابل أجرة زهيدة لا تتعدّى نصف دينار، وهو ما تؤكّده بعض المصادر التي وصفت أحوالهم بالضّائقة والعسيرة . [١٠٥]

## ثالثا : بعض العادات والتّقاليد وأثرها في المجتمع الزيّاني

من عادات أهل تلمسان وسكّان المغرب الأوسط في العصر الزيّاني ، الاحتفال بالأعياد الدّينيّة على غرار المولد النّبويّ، وعيد الأضحى شأنهم في ذلك شأن المجتمعات والدّول الإسلاميّة .

ويذكر الونشريسي أنّ الاحتفال بالمولد النبوّيّ كان يلقي اهتمامًا كبيرًا من قبل ولاّة الأمر وسائر طبقات المجتمع ، حيث اعتاد النّاس على إيقاد الشموع ، والتزيّن بما حسن من الثيّاب، وركوب الدّواب لإظهار الفرح والسّرور بمولده عليه السّلام [١٠٦] ، على رغم معارضة عدد من الفقهاء لمسألة إيقاد الشّموع في منازل العامّة ، ودور العبادة واعتبارها بدعة خارجة عن الشّرع يجب قطعها. [١٠٧]

ويضيف التنّسي أنّ أبا زيّان محمّد بن أبي حمّو (٧٩٦ – ٨٠١ هـ /١٣٩٣– ١٣٩٩م )، كان يقيم الاحتفالات لمولد المصطفى عليه الصلاة والسّلام ، احتفال أسلافه الكرام إلى الصباح وترفع إليه القصائد والمدائح بهذه المناسبة. (١٠٨)

وورد في إحدى الدّراسات(١٠٩) أنّ أهل تلمسان إهتمّوا أيضًا بالاحتفال بميلاد أطفالهم ، فكانوا يعدّون العقيقة ، وهي وليمة يذبح فيها الخرفان ، وتعدّ فيها نوع من الحلوى اشتهر بها أهل المغرب تسمى العصيدة، ويطعم من ذلك الفقراء وأقارب المولود وأسرته ، احتفالاً بقصّ أول خصلة من شعر الطفل في اليوم السّابع لولادته .

كما كانوا يحتفلون بختان الطّفل فيقيمون بهذه المناسبة مأدبة ، يدعى إليها الأهل والأقارب ، ويشاركون بعضهم البعض فيما يسمّى بالصنيع ، وهي مجالس اللّهو والطّرب التي كان يصحبها – غالبًا – النّفخ بالبوق والضّرب على العود واحتساء المصطار ( عصير العنب قبل تخمّره). (١١٠)

أمّا عن العادات المتّبعة في الأقراح ، فيذكر الوزّان ماتقوم به النّساء من صّياح وعويل ولطم على الوجوه والأطراف إذا مات لهنّ قريبًا بقوله : « وفي آخر كل بيت تصيح النّساء ويخدشن صدورهنّ وخدودهنّ حتى يسيل منها الدّم بغزارة ، وينتفن شعورهنّ نائحات مولولات ، يدوم ذلك سبعة أيّام تلك هي عادة العامّة .» (١١١)

وبعد مرور سبعة أيّام على الوفاة يستأجر أهل الميّت أحد القرّاء لتلاوة ماتيسّر من القرآن على القبر ، وبعد ذلك يشرعون في تقديم طعام للقرّاء والفقراء والأقارب للتّرحم على الميّت وصلة الأرحام ، ويسمّى هذا الطعام بعشاء القبر. (١١٢)

## المبحث الثاني : الأوضاع الاقتصادية

### أولا : الزراعة

### أ ) بعض أنواع الأراضي

١- **أراضي الإقطاع** : أراضي ملك للدّولة ، ولايحقّ التّصرف فيها إلاّ من قبل السّلطان ، يجيز إقطاعها لمن يشاء من خلال تفويض السّلطة لشخص أو لجماعة على رقعة محدّدة ، ثم توسّع المفهوم ليشمل جباية الأعشار، واستغلال الأراضي الفلاحيّة و استخلاص فوائد الرّعي، وقبض الرّسوم ، مقابل هذه الامتيازات كان المستفيد من الإقطاع يتحمّل مسؤوليتين: الأولى دفاعيّة ردعيّة يحارب بموجبها أعداء السّلطان ، والثانيّة جبائيّة يرغم بموجبها السّكّان على دفع مابذمّتهم للخزينة العامّة . (١١٣)

ويوضّح ابن خلدون استفادة عدد من القبائل بهذا النّوع من الأراضي« نظام الإقطاع» بقوله :

« وانبسطت أيدي العرب على الضّاحية وأقطعتهم الدّولة حتّى الأمصار وألقاب الجباية ومختصّ الملك ... وقاسموهم في جبايات الأمصار بالإقطاع ريفًا وصحراء وتلولاً وجريدًا. » (١١٤)

وأوّل من عمل بنظام الإقطاع في دولة بني عبد الواد هو السّلطان يغمراسن بن زيّان (٦٣٣ – ٦٨١ هـ / ١٢٣٥– ١٢٨٢ م ) مؤسّس الدّولة ، حيث اقتطع مشايخ قبيلة سويد العامريّة بلاد البطحاء وسيرات وهوّارة (١١٥) وتبعه في ذلك التّقليد بقيّة سلاطين بني زيّان .

هذا وقد طغى نظام الإقطاع بصفة خاصّة خلال عهد السّلطان أبي حمّو موسى الثّاني (٧٦٠– ٧٩١ هـ/ ١٣٥٩– ١٣٨٩م ) حيث أصبحت الدّولة عبارة عن إقطاعات للقبائل والأشخاص(١١٦) سواء أكانوا من الأسرة الحاكمة أم من أنصارها (١١٧).

وإذا كانت الدّولة الزيّانية قد وجدت في قوّة القبائل وولاء شيوخها سببا كافيًا لمنحهم عددًا من الإقطاعات، فإنّها انتهجت سياسة مماثلة إزاء العلماء والفقهاء بسبب نفوذهم الرّوحي وقوّة تأثيرهم على الرعيّة ويتّضح ذلك من خلال اهتمامها ببعض رؤساء الطّوائف الصّوفيّة ومنحهم أراضي واسعة وعيون من الماء [١١٨]

ومن الذين استفادوا من هذا الإقطاع ، فقهاء تلمسان أمثال التنّسي والعقبانيّين ، فالتنّسي أقطعه يغمراسن (٦٣٣ – ٦٨١ هـ / ١٢٣٥– ١٢٨٢ م ) أرضًا للانتفاع بها بعد قدومه من تنس، ثم بعد وفاته انتقلت إلى أبناء الإمام وهم من مدينة – برشك – في عهد السّلطان أبي حمّو موسى الأوّل ( ٧٠٨ – ٧١٨هـ/ ١٣٠٨–١٣١٨ م ) . [١١٩]

٢– **أراضي الظّهير** : ويطلق عليها كذلك اسم « المزيّة الجبائيّة والعقّاريّة » حيث ترخّص الدّولة للمنتفعين استخلاص الضّرائب الموظّفة على السّكّان المستقرّين لفائدتهم ، وأحيانًا الضّرائب الموظّفة على قبائل الأعراب الرّحّل الأضعف منهم ، وأحيانًا على أراضي المراعي والضيعات الزّراعيّة .[١٢٠]

ويعدّ منح أراضي الظّهير « إقطاع منفعة لا إقطاع رقبة » [١٢١] يحقّ الانتفاع بها وبثمارها دون تملّكها و إذا أقطعت لشخص ما ، وتوفيّ أقطعت لغيره ولاتورّث عنه، فهي منفعة لصاحب الإقطاع فحسب دون ورثته، و بشأن ذلك أورد الونشريسي مسألة فقهية جاء فيّها : « وسئل ابن عرفة عن الأرض التي تقطع للأعراب وغيرهم من النّاس هل تملّك ملكًا تامًا أم لا؟ فأجاب: بأنّ إقطاعها إنّما هو إقطاع انتفاع لا ملك» . [١٢٢]

ويضيف قائلاً :«وسئل عمّن أقطعت له ثمّ مات وخلّف ورثته فجرد ظهيرها من إمام آخر»[١٢٣]

وتبعًا لذلك فقد كان الإقطاع يكتسي عمليّا في كثير من الحالات صبغة وراثيّة ، بل كان يتّجه نحو التحوّل إلى ملكيّة تامّة ومطلقة ، وقد كان الفقهاء يحتجّون في كلّ مناسبة ضّد هذا

التّوجّه، فحتىّ بعد مرور مدة طويلة على حيازة الإقطاع ،كانوا يرفضون تمكين«أرباب الظّهائر» من حقّ التّصرّف في أرضهم كأنّها ملك خاصّ ، كما كانوا يحجرون عليهم تحبيسها مذكّرين بأنّها « ملك رقبة » . (١٢٤)

ويذكر الونشريسي نوعا آخر من أراضي الظّهير ، يمنحها السّلطان لأفراد نظير خدمات قدّموها للدّولة ، تتميّز بأنّها ملكيّة خاصّة ، يجوز بيعها وتوارثها ، وقد أطلق عليها اسم « الأرض القانونيّة ».(١٢٥)

٣- **أراضي الأوقاف :**

هي الأراضي التي يتنازل عنها صاحبها ، أو السّلطان إذا كان الأمر يتعلّق بأراضي الدّولة فعليّا – وهو مازال على قيد الحياة – عن حقّ الانتفاع بها ، لفائدة الفقراء والمشاريع الخيريّة، ويمكن أن يكون المنتفعون الوسطاء أشخاصًا مهما كانوا ، أو وارثيهم حسب نظام محدّد من طرف المحبّس. (١٢٦) وقد شكّل هذا النّوع من الأراضي انشاراً كبيراً في المغرب الأوسط بفعل تزايد درجة التّأثير الدّينيّ في المجتمع الزيّاني ، خاصّةً عندما يتعلّق الأمر بعائداتها المالية التي تصرف على المرافق العامّة مثل: المساجد والمدارس والزّوايا .(١٢٧)

ويتكلّف بإدارة وتسيّير هذه الأراضي مجموعة من الموظّفين ، يأتي في مقدّمتهم « النّاظر» الذي يسهر على ضمان كراء واستغلال هذه الأراضي ، ومراقبتها على الدّوام ، وتحصيل ثمارها وجمع أمولها .

ويؤكّد هذه الوظيفة صاحب " المعيار" بقوله : « وسئل عن ناظر الأحباس هل يجب عليه تفقدّها أم لا ؟ فأجاب : يطوف النّاظر الحبس، وشهوده ، وكتّابه ، وقبّاضه على ريع الأحباس أكيد ضروري لابدّ منه وهو واجب على النّاظر فيها لا يحلّ له تركه إذ لا يتبيّن مقدار غلاّتها ولا عامرها ولا غامرها إلاّ بذلك ، وما ضاع كثير من الأحباس إلاّ بإهمال ذلك .» (١٢٨)

٤- **أراضي الموات** : وهي الأراضي البور التي يقطعها السّلطان لمن يحييها ويزرعها لعامّة المسلمين ، فتصبح ملكاً له ويجوز له بيعها . (١٢٩)

وقد وردت إشارة في إحدى النّوازل الفقهيّة تؤكّد ذلك ، جاء فيها : « جوابكم في مسألة رجل وجد أرضًا ... من العُبّاد مرّت عليها سنون وهي دائرة لايعلم لها مالك ، وافتتحها وخدمها وغرسها منذ أزيد من خمسين عامًا ، ثم باع ذلك إلى رجل آخر. » (١٣٠)

**ب ) نظم استغلال الأراضي** : يستند نظام استغلال الأراضي الزّراعيّة والاستفادة من محصولها إلى وثيقة عقد ، تبرم بين صاحب الأرض على اعتباره مالكا لها ، وبين العامل عليها الذي يكون طرفًا رئيسًا في الشّركة المبرمة حسب مانصّت عليه وثيقة العقد من شروط وأحكام تتّصل بنظم الاستغلال وإدارة الأرض وتوزيع المحصول. (١٣١)

تشير إحدى النّوازل والفتاوى الفقهيّة (١٣٢) إلى بعض النّظم المتعلّقة باستغلال الأرض منها : المزارعة، والمغارسة ، والمساقاة .

١- **المزارعة** : تكون بين طرفين وفي موضع معيّن ولمدّة زمنيّة محدّدة ، على أن يتّم استغلالها حسب ماورد في وثيقة العقد المبرمة بين صاحب الأرض وبين المزارع ، بعد أن قوّما كراء الأرض وعمل المزارع ، فيخرج ربّ الأرض نصف مايبذر فيها من الحبوب، ويخرج المزارع النّصف الآخر ويخلطا الجميع ، ويتولىّ المزارع تعمير الأرض : بزرّيعته ، وإجارته ، وأزواجه وآلته ، وعليه حصاده وانتقاله من الأرض المذكورة ، ودرسه حتى يصير حبًّا.(١٣٣)

ويتّم توزيع المحصول حسب ماتمّ الاتّفاق عليه في وثيقة العقد ( مسألة شركة، مسألة إيجار ) ، فإن كانت إجارة كان لصاحب الأرض ثلاثة أرباع ، ولصاحب العمل الرّبع، وإن كانت شركة تمّت مناصفةً، وإن كان القائم عليها خمّاسا، حصل على خمس المحصول، والأربعة الباقية لصاحب الأرض . (١٣٤)

٢- **المغارسة** : وهي أن يدفع المالك أرضه إلى شخص آخر ، ليغرسها صنفًا من الشّجر أو أصنافًا يسمّيها، فمتى أثمرت وأطعمت كان ذلك بينهما مناصفةً ، وعلى العامل الغرس والحفر والحرز والنّقش إلى ظهور صلاحها وبدء طيبها، ولا تجوز المغارسة في : بقل ولا زرع ولا بصل [١٣٥] ويمنع أيضًا على صاحب الأرض من زراعة الأرض المغروسة ،لأنّه ضرر بالغرس إلاّ أن تكون هناك عادة . [١٣٦]

٣- **المساقاة** : تكون بين طرفين شريكين ، أو بين ربّ الأرض وبين العامل عليها كأجير لمدّة زمنيّة محدّدة وحسب نوع الزرع أو الغرس، وهي ثلاثة أصناف : صنف أصله ثابت ، تنقطع ثمرته . فالمساقاة في ذلك جائزة في كلّ وقت ظهرت ثمرته أم لا . وصنف ثان إذا حدثت ثمرته لم يبق له أصل كالزّرع والمقثأة ؛ فالمساقاة في ذلك جائزة عند الضّرورة . وصنف ثالث لاتجوز مساقاته إذا لم ينبت وكذلك إذا نبت لأنّه لا أمد له ، كالبقول ، والموز ، والقضب ، وكل مايجذّ ويخلف . [١٣٧]

ولايجوز حسب الإمام مالك مساقاة : ماجاز بيعه ، أو جاز كراؤه ، لأنّه يترك في الأرض كراءً معلومًا ، ويرجع إلى غرز الجزء ممّا تنبت الأرض ويدع في الثمرة ثمنا معلومًا ، ويرجع إلى المساقاة فيصير أجره على جذّها ومؤنتها .[١٣٨]

أمّا عن مصادر السّقاية في المغرب الأوسط فهي متعدّدة ، وهو ماذهب إليه حسن الوزّان عند وصفه مدينة تلمسان بقوله : « وفي المدينة عدّة سقايات » [١٣٩] وحصرها ابن حوقل من خلال وصفه لمدينة برشك في الأنهار والآبار بقوله « ولها مياه جارية وآبار معين » [١٤٠] وحدّدها الونشريسي بشكل دقيق في : الأمطار ، والعيون ، والآبار، والأودية ، والصّهاريج [١٤١].

ويشير القلقشندي إلى ذلك بقوله : « وهي مدينة (تلمسان) في سفح جبل ...ماؤها مجلوب من عين على ستّة أميال منها ، وفي خارجها أنهار وأشجار ويستدير بقبليها، وشرقيها نهر

يصبّ في بركة عظيمة من آثار الأوّل، ويسمع لوقعه خرير على مسافة ، ثم يصبّ في نهر آخر، بعدما يمرّ على البساتين ، ثم يصبّ في البحر . » (١٤٢)

أما عن نظام الريّ في تلمسان ، فيوصف بالتّنظيم الدّقيق للغاية ، بحيث كان المزارعون يتعاونون فيما بينهم على سقاية الأرض على نحو بلغ الغاية في التّرتيب ، فقد كان بتلمسان عين ماء مشتركة بين أهلها يسقون منها بساتينهم ومزارعهم بحصص دورية ، وبأوقات معلومة وهو ما توضّحه هذه النّازلة :

« وسئلت من قبل القاضي بتلمسان أبي زكرياء يحي بن عبد الله بن أبي البركات : سيّدي رضي الله عنكم جوابكم في عين ماء مشتركة بين أناس يسقون منها جنّاتهم ، فمنهم من حظّه نهارًا، ومنهم من حظّه ليلاً، ومنهم من حظّه في غدوة إلى الزّوال ، ومنهم من حظّه من الزّوال إلى العصر، واستمرت العادة فيما ينيف على الخمسين عامًا ، فمنهم من كان يروي أرضه نهارًا، ومنهم من يرويها ليلاً ، وفئة ثالثة كانت تروي من الغداة إلى الزّوال، وفئة أخرى تروي من الزّوال إلى العصر، واستمروا يزاولون هذا الإجراء لسنوات طويلة تنيف على الخمسين عامًا.»(١٤٣)

**ج ) الإنتاج الزّراعي :**

لقد كانت جودة الأراضي وخصوبتها (١٤٤) ، وتعدّد طرق استغلالها ونظمها (١٤٥) ، وتنوّع مصادر المياه وأساليب السّقي(١٤٦)، واعتناء سكّان تلمسان واهتمامهم بالنّشاط الزّراعي(١٤٧)، عوامل مهمّة في تفسير نوعية الإنتاج وكمّيته في الدّولة الزيّانيّة ، فمنطقة تلمسان وما جاورها من الأراضي شهدت نشاطا مكثّفًا يتّفق أغلب الجغرافيين على التّنويه بأثاره مع زيادة في الإنتاج .

١- **الخضر والفواكه** : تتوفّر زراعة الخضر والفواكه في الأراضي الخصبة المجاورة للأودية والعيون ، في شكل مزارع و بساتين وجنان (١٤٨)، حيث تشير كتب الجغرافيا إلى أنواع عدّة من

الخضر منها : الجزر واللّوبيا والكرنب والبصل والخيار والقثاء واللّفت والباذنجان والقرع وقصب السّكر، والقنبيط والخّس والهليون. (١٤٩)

أمّا الفواكه فهي على أنواع وأذواق مختلفة مثل: العنب والتّين والسّفرجل والتّفاح والكمثري والزّعرور والخوخ والمشمش والتّوت واللّيمون والجوز والنّخيل وغيرها. (١٥٠)

وعن هذه المحاصيل يصف حسن الوزّان تلمسان بقوله: « وفي المدينة عدّة سقايات ... حيث الكروم المغروسة الممتازة تنتج أعنابًا من كلّ لون ، طيّبة المذاق جدًّا ،وأنواع الكرز الكثيرة التي لم أر لها مثيلاً في جهة أخرى ، والتّين الشّديد الحلاّوة ، وهو أسود غليظ طويل جدًّا ، يجفّف ليؤكل في الشّتاء ، والخوخ والجوز واللّوز والبطّيخ والخيار وغيرها من الفواكه المختلفة » . (١٥١)

ويشير يحي بن خلدون إلى بعض المنتوجات الزّراعية التي تثمرها أرض تلمسان بقوله :

« ويوجد بخارجها...الحدائق الغلّب، بما تشتهيه الأنفس وتلذّ الأعين من فواكه الرمّان ، والزّيتون ، والتّين ... وتنصبّ إليها من أعلى جبالها أنهار من ماء غير آسن ... ويسقي بساتينها خارجها ، ومغارس الشّجر، ومنابت الحبّ » . (١٥٢)

وأمّا تيهرت وتنّس وشرشال ومازونة ومليانة والبطحاء ووهران وغيرها من أراضي الدولة الزيّانية ، فكانت لاتختلف عن تلمسان ، بها فواكه حسنة مختلف ألوانها « والأراضي جيّدة تعطي غلّةً حسنة».(١٥٣) ويصف القلقشندي فواكه تيهرت بقوله : « وبها البساتين الكثيرة المونقة والفواكه الحسنة ، والسّفرجل الذي ليس له طعم أو شمّ » . (١٥٤)

ويضيف ابن حوقل ما تنتجه مدينة برشك بقوله : « ولها مياه جارية وأبار معين ، وبها فواكه حسنة غزيرة وسفرجل معنّق ،كالقرع الصّغار وهو طريف وأعناب » . (١٥٥)

أمّا النّاحية الممتدّة مابين مدينة تنّس والمسيلة فكانت هي الأخرى تنتج ما لذّ وطاب من الخضر والفواكه والتّوابل« ومن مدينة تنّس إلى المسيلة قرى كثيرة عبر مراحل ...لها كروم ذوات

سوان ، يزرعون عليها البصل والسّهدانج والحنّاء والكمّون ، ولها كروم كثيرة ومعظمها على نهر الشّلف ، ومن التنّس إلى الشلّف مرحلتان » . (١٥٦)

٢- **الحبوب ومحاصيل أخرى** : تتّم زراعة الحبوب في الأراضي الخصبة خاصّة السّهليّة منها، كسهل تسّالة، وسهل وادي الشلّف ، وسهل تيارت وسهول متّيجة ، بالإضافة إلى السّهول السّاحليّة الأخرى كسهل تنّس (الظّهرة) ، ووهران، وهنين ، والأراضي المحيطة بتلمسان ومن أهمّ أنواع الحبوب : القمح ، الشّعير ، الحنطة وغيرها . (١٥٧)

وحول نوعيّة إنتاج القمح وكميّته يشير حسن الوزّان إلى سهول تسّالة المجاورة لتلمسان بقوله : « أمّا مدينة تسّالة فتقع في سهل كبير يمتدّ على مسافة عشرين ميلاً ، ينبت قمحًا جيّدا جميل اللّون غليظ الحبّ يمكنه وحده أن يزوّد تلمسان بما تحتاجه من حبوب » وعن مدينة تنّس يقول : « وأمّا إقليمها فينتج الكثير من القمح » ويذكر أيضًا سهل البطحاء « في سهل فسيح ينبت فيه القمح بكثرة ، وكانت تحقّق لملك تلمسان دخلا يقدّر بعشرين ألف مثقال». (١٥٨)

أمّا حوض الشّلف وماجاوره من الأراضي الخصبة كسهول مليانة وبرشك فتنتج إلى جانب القمح، الشّعير والحنطة والكتّان، هذا إلى جانب المناطق الجبلية كجبل متغارة ، وولهاصة وبني يزناسن ومطغرة التي لا تنتج إلاّ الشّعير. (١٥٩)

ويذكر الوزّان مدينة برشك بقوله : « وتنتج البادية الجميلة من حولها كثيرا من الكتّان والشّعير » .(١٦٠)

وإلى جانب هذه المحاصيل تشير بعض المصادر الفقهيّة إلى زراعة القطن والقطاني والذّرة والمقاتي .(١٦١) فالقطن والكتّان من المحاصيل الزراعيّة الهامّة في المغرب الأوسط خاصّة في الصّناعات النّسيجيّة ، ممّا يفسّر انتشاره في مناطق عدّة ، وهو مايؤكّده حسن الوزّان بشأن سكّان مدينة ندرومة بقوله :

« ويتنجون على الخصوص أقمشة القطن لأنّه ينبت بكثرة في النّاحية » . (١٦٢)

**٣- نظام الرّعي وتربية الماشية :**

تشير إحدى الدّراسات الحديثة [١٦٣] إلى أنّ أراضي الدّولة الزيّانيّة كانت في حقبة من حقب تاريخها مرتعا ومرعى للحيوانات المختلفة والماشية خاصّة الأغنام والأبقار والإبل والخيول والحمير ، وتزاول من طرف القبائل التي توجد مضاربها ضمن محيط الدّولة .

ويصف ابن خلدون الحياة الرّعوية لبعض القبائل ضمن نطاق المغرب الأوسط بقوله : « ويضعن أهل العزّ منهم والغلبة لانتجاع المراعي ، فيما قرب من الرّحلة ، لايتجاوزون فيها الرّيف إلى الصّحراء والقفار الأملس ومكاسبهم الشّاة والبقر والخيل ...وربّما كانت الإبل من مكاسب أهل النّجعة منهم شأن العرب ، ومعاش المستضعفين منهم بالفلح ودواجن السّائمة».[١٦٤]

**ومن القبائل التي اشتهرت بتربية الماشية :**

قبائل بني توجين ، ومغراوة خاصّة في المرتفعات الجبليّة ، أمّا القبائل النّاجعة فأغلب حيواناتهم الإبل ، بينما انحصرت تربية الخيول في المناطق السّهلية والهضاب . [١٦٥]

وكثرت تربية الأبقار في المغرب الأوسط، حيث المراعي والأعشاب، والأراضي المستوية في الشّمال خاصّة في مدينة تيهرت وأراضي مطماطة ، بينما اشتهرت تربية الأغنام والماعز في الهوامش الشّمالية للصّحراء في الشّتاء ، والسّفوح الجنوبيّة في الصّيف. [١٦٦]

ويذكر ابن حوقل مواضع مختلفة من أراضي الدّولة الزّيانيّة ، ارتبط اسمها بتربية الماشية، فيصف تيهرت بقوله : « وهي أحد معادن الدّواب والماشية والغنم والبغال والبراذين الفراهية ، ويكثر عندهم العسل والسّمن » ، وهي إشارة إلى تربية النّحل ، ويشير إلى مدينة وهران وما جاورها بقوله : « وأكثر أموالهم الماشية ، ولهم منها الكثير» . [١٦٧]

وينفرد الوزّان بوصف دقيق للحياة الرّعوية لسكّان إقليم بني راشد التي لا تبعد كثيراً عن تيهرت بقوله : « يقيمون في البادية ويعيشون تحت الخيام معتنين بماشيتهم ، ولهم عدد وافر من الجمال والخيل » وأمّا عن البطحاء التي لاتبتعد كثيرا عن تلمسان ، فيصف أحد الرّعاة بقوله : « وتكاثر بقره وخيله وغنمه إلى حدّ أصبح هو بنفسه لايعرف عدد رؤوس تلك الماشية ...وأنّ له زهاء خمسمائة من الخيل ، وعشرة آلاف من الغنم ، وألفين من البقر » . (١٦٨)

**ثانيا : بعض أنواع الصّنائع والحرف**

مثّلت بعض الحرف والصّنائع في المجتمع الزيّاني القاعدة الإنتاجية للمدينة ، بما كان يقدّمه الحرفيون من دور بارز في تنشيط الحياة الاقتصادية ، وذلك بإستغلال الموادّ الأوّلية وتحويلها فلاحيّة كانت أم معدنيّة إلى بضائع استهلاكيّة قابلة للتّسويق ، ومن أهمّ هذه الصنائع:

**١- الصّناعات النّسيجيّة :**

تعتمد هذه الصّناعة على موارد مختلفة كالصّوف ، والقطن، والكتّان ، والحرير والجلود المدبوغة على اعتبارها مادّة أوّليّة متوفّرة بشكل كبير في أراضي الدّولة الزيّانية ، وتشمل بوجه خاصّ : حياكة الملابس والزّرابي والحنابل، وصناعة الخيم والأحذية والسّروج والعمائم والأحزمة وغيرها . (١٦٩)

وقد أثنى يحي بن خلدون على هذه الصّناعة بتلمسان بقوله : « غالب تكسيبهم الفلاحة وحوك الصّوف ، يتغايون في عمل أثوابه الرّقاق ، فتلقى الكساء ، والبرنوس عندهم من ثماني أواقي ، والأحرام من خمس ، وبذلك عرفوا في القديم والحادث ، ومن لدنهم يجلب إلى الأمصار شرقا وغربا» . (١٧٠)

ونوّه الزّهري بمكانة تلمسان في صناعة المنسوجات الصّوفيّة بقوله :

« وهي دار مملكة يعمل فيها من الصّوف كلّ شيء بديع من المحرّرات والأبدان وأحاريم الصّوف والسّفاسير والحنابل المكلكلة وغير ذلك وهذا من بديع ماخصّ به أهلها من جميل صنعهم ... ومنها يجلب لقيط الصّوف والأسيلة لسروج الخيل إلى بلاد المغرب وبلاد الأندلس» (١٧١)

فقد كان أبو زيد عبد الرّحمن بن النّجّار من كبار أرباب الحرف بتلمسان يزاول حياكة الصّوف الرّفيع في درب شاكر، وكان أغلب هذا الدّرب له ولخدّامه ، يقصده كبار التّجّار من المشرق والمغرب للاقتناء منها، وكان يجني من بيعه لهذا الصّوف ألف دينار في اليوم الواحد(١٧٢) وانفرد جورج مارسي بوصف دقيق لخياطة السّروج وتطريزها بقوله : « إلاّ أنّ الفرسان المحتفظين بتذّوق السّروج الفاخرة قد يجدون بتلمسان طرّازين أكفّاء يقومون ببسط مشبك الزّخرف المزدوج في شكل أغصان ملتفّة بالسّلك الذّهبي أو الفضيّ على جلد أو قطيفة السّروج والعمائم والأحزمة» (١٧٣) وتشير كتب التّراجم إلى وجود ورشات حرفيّة يديرها أرباب الحرف بمساعدة مجموعة من الصّبيان ، يخضع من خلالها الصّبي لمدة معيّنة حتىّ يتعلّم الصّنعة، على أن تقدّم له أجرة لاتزيد عن نصف دينار كلّ شهر.(١٧٤)

**٢- الصّناعات الفخّارية والخشبيّة :**

ارتبطت حرفة الفخّار بوجود عدد من الأفران المتخصّصة بصناعة الفخّار والخزف والقرميد ، بمدينة تلمسان وضواحيها ، خاصة بالقرب من باب العقبة ، و يشير جورج مارسي إلى تراجع هذه الحرفة عمّا كانت عليه من تطور وازدهار منذ زمن طويل مقارنة بحرف أخرى كالنّسيج.(١٧٥)

ومن المؤكّد أنّ هذه الصّناعة قد تأثرت بشكل كبير من خلال فئة الأندلسيين ، الذين أدخلوا معهم إلى بلاد المغرب الأوسط صناعات جديدة كصناعة الزّليج ذو الألوان المختلفة.(١٧٦)

وكذا فإن عمارة المساجد وبناء القصور والبيوت في هذا العصر تركت أثارًا كبرى في تطوير الصّناعات الخشبيّة ، بما احتاجته من أسقف ونوافذ وأبواب ومنابر ومقصورات وأثاث وتحف زخرفيّة ، وكانت السّقوف الخشبيّة تغشى بالقصدير والأصباغ الملّونة، والأبواب تغشى كلّها بالنّحاس الأصفر، وكانت المنابر والمقصورات تزخرف بأشكال هندسيّة ونباتيّة وتطعم حشوات المنابر بالعاج والأبنوس والصّندل والعنّاب وأصناف الخشب العظيم[١٧٧] .

وقد برز كذلك في القرن التّاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، النّحت على الخشب بالنسبة إلى الأثاث والخزائن والصّناديق وأبواب المساجد ، ومن بين الآثار الدّالة على هذه المرحلة ثريّة مسجد تلمسان التي تعود إلى عهد يغمراسن بن زيّان( ٦٣٣ – ٦٨١ هـ / ١٢٣٥– ١٢٨٢ م). [١٧٨] هذا إلى جانب النّحت على الجبس والزّخرفة والفسيفساء الفنيّة التي وجدت على سطوح الحجرات المبلّطة بالزّليج الملون ، وهو ما ذهب إليه الحسن الوزّان في وصفه لمدينة هنين التي لا يفصلها عن تلمسان إلاّ أربعة عشر ميلا بقوله : « ودورهم في غاية الجمال والزّخرفة ...أرضها مبلّطة بالزّليج الملون ، وسفوح الحجرات مزيّنة بنفس الزّليج ، والجدران مكسوّة كلّها بالفسيفساء الفنيّة .» [١٧٩]

وتعد المدرسة التّاشفينيّة آية في الزّخرفة والجمال، إذ يصفها جورج مارسي بقوله: « ولعب التّلبيس الخزفي في الزّخرفة دورًا هامًا ...فجهّزت بالخزف محيطات الأبواب ورصف القاعات، وتقدمت المصلى فسيفساء من المرمر تأطّرت بزخرفة ضفيريّة نباتيّة رقيقة.» [١٨٠]

**٣- الصّناعة المعدنيّة :**

هي من بين الصّناعات التي أخذت إهتمامًا خاصًّا من قبل السّلطة الزيّانيّة لارتباطها بالحياة المدنيّة من جهة والحياة العسكريّة من جهة أخرى، ويعود السّبب في تطورها إلى وفرة الموارد الأوليّة في محيط الدّولة وقربها من مناجم الذّهب والزّنك والحديد بشكل خاص.[١٨١]

شملت هذه الصّناعة الأسلحة التّقليديّة كالسّيوف، والرّماح، والدّرق ، والمجانيق، والعرّادات، والآلات المختلفة التي تستعمل في عمليات الحصار. (١٨٢)

وقد استعملت في مواضع مختلفة ، كمصاريع للأبواب ومقابض ومطارق لها، إلى جانب بعض الأدوات البسيطة كالفؤوس والمحاريث والشّبابيك وغيرها.(١٨٣)

وارتبطت كذلك بسكّ العملة وصناعة النّقود من دنانير ودراهم، بلغ عددها إثنان وثلاثون دينارًا ذهبيًّا في غاية الجودة والإتقان ، بما تحمله من أشكال هندسيّة، وأقوال مأثورة لأسماء الملوك والسّلاطين ، وآيات من القرآن الكريم ، ومعلومات أخرى تفيد أنّها ضربت بمدينة تلمسان، مما يؤكد وجود دار للسّكة.(١٨٤)

**ثالثا : النّظام التّجاري**

**أ ) تنظيم الأسواق وإدارتها**

إنّ الحديث عن الحركة التّجارية في الدّولة الزيّانيّة يرتبط أساسًا بوضعية الأسواق وتنظيماتها في هذا العهد ، حيث تمثّل الأسواق مركزًا للنّشاط التّجاري بصوره ومراحله المختلفة.

فالأسواق هي مرآة عاكسة لحياة المدينة الاقتصاديّة وعنوان نشاطها التّجاري والصّناعي بل والاجتماعي أيضاً ، فمنذ إنشاء المدن رتّبت أسواقها ، ودعمّت ببعض المنشآت وأصبح لها تنظيمات وقواعد معيّنة خاصة بعدما تولّت الدّولة الإشراف عليها. (١٨٥)

ويتّضح من خلال ذلك ، أنّ لكلّ سوق وقت محدّد لإنعقاده ونوع معيّن من السّلع التي يختص بها ، حيث تشير بعض الدّراسات (١٨٦) إلى عدد من الأسواق الأسبوعية والموسميّة في البوادي والمدن:

كسوق سيدي بوجمعة الذي يعقد كل يوم أربعاء بمدينة تلمسان ، وسوق بني راشد الذي يعقد كل خميس ويباع فيه عدد وافر من الماشية والحبوب والزيت والعسل ، وكثير من المنسوجات وأشياء أخرى أقل قيمة ، كالحبال والسّروج والأعنّة وحاجيات الخيل .

كما وجد عدد آخر من الأسواق الحرفيّة مثل : سوق الخرّازين ، وسوق النّحاسيين، وسوق العطّاريين ، وسوق الغزل والنّسيج ، وسوق الخضر والفواكه ، وسوق اللّحوم . (١٨٧)

وتشير إحدى الأبحاث(١٨٨) إلى رواج بعض الأسواق المتخصّصة في بيع العبيد السّود، في مدينة تلمسان لفئة التّجار الأجانب خاصّة الكاتالونيّين والبنادقة والميورقيّين ، إذ يشكّلون بضاعة مربحة لتعدّد مجالات استخدامهم .

ويتحكّم في إدارة هذه الأسواق وتسيّيرها ، فئات التّجار على اختلاف أصنافهم ورؤوس أموالهم، إلى جانب فئات أخرى تتكفّل بنقل السّلع وحملها ، وآخرون يحدّدون الأسعار كوسطاء بين البائع والمشتري. لتنظيم حركة نقل السّلع والبضائع من مكان إلى آخر وجد الحمّالون، الذين يزاولون مهامهم بترخيص من عامل المدينة ، ولهم أمين يفصل في نزاعاتهم، كما وجد الدّلاّلون (السّماسرة ) وهم عبارة عن وسطاء بين التّجار فيما يبتاعونه أو يبيعونه إلى المشتري، حيث يحمل الدّلاّلون السّلعة من دكّان إلى آخر مبتغين فيها أعلى الأثمان .(١٨٩)

وتفيد إحدى النّوازل الفقهيّة ماكان يسببه الدّلاّلون من أضرار جسيمة للباعة والتّجار، لأنّ المشتري كان يقوم « بتقليب السّلعة في حوانيتهم قاصدًا الإشتراء ، ويرى السّلعة في المناداة أقلّ ثمنًا من التي في الحوانيت ... فيترك الإشتراء منهم ويميل إلى سلعة المناداة لدى الدّلاّلين، وينتج عن ذلك عدم تسويق سلعهم إلاّ في آخر النّهار، ممّا يضرّ بمصالحهم ، لأنّ التّاجر أو البائع يسعى إلى بيع سلعته في أولّ النّهار ليشتري بثمنها سلعًا غيرها. » (١٩٠)

**ب ) مراقبة الأسواق**

تعكس أهميّة الرّقابة المفروضة على الأسواق في الدّولة الزيّانيّة قضايا متعدّدة ذات صلّة بحياة المجتمع وتقاليده ضمانًا للسّير الحسن للنّشاط التّجاري، ورغبة لوضع حدّ للسّلوكيات الدّنيئة الصّادرة عن بعض الباعة والتّجار ومن ذلك :

مراقبة المكاييّل والموازين التي كان يستخدمها التّجار في تعاملتهم اليوميّة لوضع حدّ لطرق الغشّ والتّدليس في بيع السّلع وشرائها ، وتذكر بعض المصادر عددًا من وحدات الكيل التي يستعملها أهل تلمسان ومدن المغرب الأوسط في تعاملاتهم منها : الصّاع وهو ما يعادل أربعة أمداد نبويّة، مع العلم أن الصّاع الشّرعي يساوي أربع حفنات [١٩١] ، أمّا الوسق ويسمّى الصّحفة فيعادل ستّون صاعًا بالصّاع النّبوي بإجماع العلماء ،

بصاع النّبي- صلّى الله عليه وسلّم - وهو ما يعادل حفنة من الحبوب بكلتا اليدين مجتمعتين من ذوي يدين متوسطتين بين الصّغر والكبر [١٩٢] ، أمّا وحدة الوزن الشّائعة فكانت الرّطل ، وكلّ رطل يساوي ستة عشر أوقية ، بينما حدّدت وحدة الأوزان الكبيرة بالقنطار ، في حين كانت وحدة وزن الذّهب هي المثقال . [١٩٣]

ويذكر الونشريسي أنّ من الباعة والتّجار من كان يلجأ إلى الغشّ والتّحايل، ومن ثمّة يتعرض للعقوبة من جانب المحتسب أو صاحب السّوق ، ومن أمثلة الغشّ في الأسواق: بيع الخبز ناقص الوزن ، وخلط العسل الجيّد بالرّدئ والزّيت القديم بالجديد، ومزج اللّبن بالماء. [١٩٤]

ويضيف لنا العقباني عرضًا لسلوكيات الجزّارين بتلمسان بقوله : « قلت : وكذا تقرّرت ببلدنا تلمسان أنّ ما يبيعه الجزّار من اللّحم يدخل في وزنه شيئًا من الكرش والمصران على قدر شدّة الثّمن وقلّته . » [١٩٥] ومن الباعة من يخلط القمح الجيّد بالرّديء ويبيعه ، ناهيك عن الغشّ في الخبز ومبيعات أخرى. [١٩٦]

ومن أجل تفعيل الرّقابة على الأسواق وتأمينها، أسند هذا الأمر لعدد من الأمناء ومحتسبي الأسواق وقد اشترط في اختيارهم لهذا المنصب جملة من الشّروط حدّدها محمّد بن أحمد بن عبدون التّجيبي بقوله: « ويجب أن يكون المحتسب رجلاً عفيفًا ، خيّراً ، ورعاً، عالماً، غنيًّا ، نبيلاً، عارفًا بالأمور، محنّكًا ، فطنًا ، لا يميل ولا يرتشي ، فتسقط هيبته ويستخّف به ولا يعبأ به ويتوبخ معه المقدّم له. » (١٩٧)

ويبدو أنّ حكّام الدّولة الزيّانيّة لم يتقيّدوا بهذه الشّروط في أواخر عهدهم ، وأصبحوا يعهدون بها لأناس عاديّين لا تتوفر فيهم الكفاءة اللاّزمة لممارسة هذه المهنة ، إذ تكشف كتب النّوازل المعاصرة لذلك عن انتشار الغشّ في الأسواق والتّلاعب بالمكايّيل والموازين، وبالسّلع المعروضة في السّوق مقابل غضّ البصر من قبل ولاّة الأسواق وحصولهم على رشاوى ومنافع ماديّة من طرف التّجار وأصحاب الصّنائع.(١٩٨)

ولم يتوقف الأمر عند هذا الحدّ ، بسبب عجزهم عن محاربة ظاهرة اللّصوصيّة التي كانت منتشرة بكثرة داخل الأسواق مستهدفة بذلك فئة التّجار ، وروّاد الأسواق . (١٩٩)

**ج ) نظام التّسعير في الأسواق** : شكّلت ظاهرة التّسعير في أسواق الدّولة الزيّانية جدلاً فقهيًّا بين مؤيّد ورافض للفكرة ، إذ تشير بعض النّوازل الفقهيّة إلى حرمة سياسة التّسعير ، لأنّه مظلمة في حقّ التّجار والباعة في الأسواق سيّما في أوقات الغلاء لأنّ ذلك مقدّر من الله ولا دخل للإنسان فيه. (٢٠٠)

في حين رأى بعض الفقهاء أنّ التّسعير واجب ، خاصّة إذا تعمّد التّجار سياسة الغلاء في أوقات الشدّة بإخراج ماعندهم من البضائع المحتكرة ومضاعفة أثمانها ، فإنّهم يجبرون على الحطّ من السّعر والالتحاق بأسعار السّوق حتّى لايضرّ ذلك بعامة النّاس.(٢٠١)

ومن بين الذين كانوا يحثّون على العمل بنظام التّسعير في أسواق المغرب الأوسط العالم والفقيه: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن قاسم بن سعيد العقباني التلمساني بقوله :« قلت كان

سيّدنا وشيخنا الجدّ الأقرب يقول : يتعيّن أن يكون التّسعير على أهل الأسواق في هذا الزّمن متّفقا عليه وتفقّدهم في كلّ لحظة فضلاً عن كلّ يوم لازم بما دانوا به من جميع المحضورات في البيع والابتياع ، ومن أخبث شرورهم وأشنع مرتكبات محذورهم أنّ الجالب إن أدركه سبب التعذّر ولو من وابل مطر أو شدّة وحل فإنّهم يعدّون ذلك عذرا لخلاء السّوق من المطعومات وغيرها ، إظهارًا منهم لفراغ ما بأيديهم من ذلك لتعذّر جلب الجالبين ومخازنهم به ملأى وما ذلك إلاّ من ترصدهما الحطيطة في السّعر لا من إخلائهم الأسواق ، فإذا حطّ لهم منه أوقية أخرجوا مختزنهم وباعوا منه الكثير مبادرة على إتيان المجلوب فيرخّص ما بأيديهم. » (٢٠٢)

ويتّضح من النّص أنّ العمل بنظام التّسعير كان سارياً في تلمسان ومدن المغرب الأوسط في (٠٨ – ٠٩ هـ / ١٤–١٥م ) حتّى لا يتجاوز التّجار حدودهم ويترصدّون الظّروف المناسبة للمضاربة والمغالاة .

وبما أنّ قيمة الأسعار مسألة نسبيّة قد تزيد أو تنقص، نظرًا للتّغيرات المفاجئة والظّروف المحيطة ، فقد تأكّدت ظاهرة الغلاء في أسعار المواد الغذائيّة سيّما في أوقات المجاعة التي اجتاحت تلمسان أكثر من مرّة ، وكان من بينها المجاعة التي حلّت بها مابين (٦٩٨ – ٧٠٧ هـ / ١٢٩٩–١٣٠٧م ) ، نتيجة الحصار المريني حيث نفذت الأقوات وفرغت المخازن من الطّعام وارتفعت الأسعار. (٢٠٣)

ويقدّم لنا ابن خلدون وصفًا دقيقًا لهذا الوضع بقوله : « وغلت أسعار الأقوات والحبوب وسائر المرافق بما تجوز حدود العوائد ، وعجز وجدهم عنه ، فكان ثمن مكيال القمح الذي يسمّونه البرشالة ويتبايعون به ، مقدارًا إثنا عشر رطلاً ونصف مثقالين ونصفا من الذّهب العين، وثمن الشّخص الواحد من البقر ستّين مثقالا ، ومن الضّأن سبعة مثاقيل ونصفا، وأثمان اللّحم من الجيّف الرّطل من لحم البغال والحمير بثمن المثقال ، ومن الخيل بعشرة دراهم صغار من سكّتهم ... والرّطل من الجلد البقري ميتة أو مذكى بثلاثين درهمًا ، وهرّ الدّواجن بمثقال ونصف... والدّجاجة بثلاثين درهمًا ، والبيض الواحدة بستّة دراهم والعصافير كذلك ، والأوقيّة

من الزّيت بإثني عشر درهما، ومن السّمن بمثلها ومن الشّحم بعشرين ومن الفول بمثلها، ومن الملح بعشرة، ومن الحطب كذلك ، والأصل الواحد من الكرنب بثلاثة أثمان المثقال ، ومن الخسّ بعشرين درهما ومن اللّفت بخمسة عشر درهما ، والواحدة من القثاء والفقوس بأربعين درهما، والخيّار بثلاثة أثمان الدّينار والبطّيخ بثلاثين درهما ، والحبّة من التّين والإجّاص بدرهمين، وأستهلك النّاس أموالهم وموجودهم ، وضاقت أحوالهم. » [٢٠٤]

ويضيف حسن الوزّان في وصفه لهذه المجاعة بقوله : « ودام الحصار سبع سنوات وأستفحل الغلاء إلى أن بلغ ثمن كيلو روجيو من القمح ثلاثين مثقالا ، وسكورزو من الملح ثلاثة مثاقيل ، ورطل من اللّحم ربع مثقال ، فلم يطق السّكان تحمّل مثل هذه المجاعة. »[٢٠٥]

وللتّخفيف من حدّة الغلاء في الغذاء خاصّة أيّام المحن والشدّائد ، منع الفقهاء والقضاة احتكّار السّلع من قبل التّجار، وقاموا بحثّهم على إخراج القمح والشّعير وسائر الأطعمة المدّخرة وبيعها في الأسواق لحاجة النّاس إليها بسعر معقول ، وقد شدّدوا العقاب على بعضهم إذا ماتبيّن امتناعهم عن إخراج سلعهم لبيعها ، وإن لم يفعلوا تخرج بضاعتهم وتباع قصرا ويعطى لهم رؤوس أموالهم والفائدة تفرق على الضّعفاء تأدّيبًا لهم ، وإن لم ينتهوا عن ذلك كان الضّرب والسّجن لهم ، وقد شدّدوا النّكير على متلقي السّلع في الفنادق، وألزموهم بإنزالها إلى الأسواق ليدركها الضّعيف والقويّ [٢٠٦] ، فضلا عن ذلك فقد أجاز فقهاء المغرب الأوسط التّسعير على التّجار خصوصًا إذا تجاوز هؤلاء حدودهم في البيع ، وكان الغلاء متفاحشًا [٢٠٧] ، ويتحكّم في غلاء الأسعار أيضًا في غير أوقات المجاعة وظاهرة الاحتكار ، قانون العرض والطّلب ، فإذا كانت السّلعة نادرة الوجود تعمّد التّجار تخزينها حتّى يكثر الطّلب عليها وترتفع أثمانها في الأسواق[٢٠٨] ،كما أنّ التّجار الذين يحتكرون الزّرع يستغلّون هذا الظّرف للزّيادة في أسعار القمح والشّعير ، أو يشترونه مباشرة من الدّور والفنادق قبل نزوله إلى الأسواق قصد التّحكم في تسعيره[٢٠٩] لذلك نهى الفقهاء عن هذا السّلوك ، ومنع الحنّاطين من شرائه في الدّور أوقات الغلاء ، لأنّه يدخل في باب المضرّة بالأسواق ، ومثلهم في ذلك مثل الطّحانين الذين يشترون

القمح في الدّور ويطحنونه ويبيعونه دقيقًا للنّاس بسعر مرتفع ، لأنّهم يحتسبون في ذلك جهودهم في الطّحن . (٢١٠)

أمّا في الأوقات العادية فتشير إحدى الدّراسات إلى دور الدّلاّل في تحديد أسعار البضائع والسّلع لاتّصاله بأصحاب المهن والصّنائع من جهة ، ونظرته حول سعر المادة المعروضة في الأسواق خاصّة إذا تعلّق الأمر بمادتي الجلود و المواد المختلفة المستعملة في الدّبغ . (٢١١)

وفي بعض الحالات لا يقتصر تحديد الأسعار على المحتسب فقط ، بل يختار التّجار من له معرفة بأحوال السّوق ، وخبرة في تميّيز الجيّد من الرّديء فيحدّد لهم الأسعار ويلتزمون بها ، ولو كان ذلك مؤقتا.(٢١٢).

**د ) التّجارة الخارجيّة للمغرب الأوسط**

كان للاستقرار السّياسي الذي شهده المغرب الأوسط في العصر الزيّاني أثره في ازدهار حركة التّجارة وتنشيطها حيث شهدت أسواقه نشاطا متميّزا في البيع والشّراء ، وذلك بتشجيع كبار التّجار وصغارهم على المشاركة في إقامة الأسواق الأسبوعيّة وتفعّيلها في البوادي والمدن.(٢١٣)

ويتحكّم في تنشيط هذه الأسواق وتفعيلها ، فئات التّجار على اختلاف أصنافهم ورؤوس أموالهم ، ويمكن أن نميّز بين ثلاثة أصناف من التّجار :

تجّار صغار يزاولون تجارتهم بمفردهم ، وأغلب هؤلاء يكونون إمّا مستأجرين للدّكاكين والمتاجر، أو متجولين بين الشّوارع والأزقة، لاتزيد قيمة بضاعتهم عن مائتي دينار(٢١٤) وتجّار يتنقلون بين المدن وأسواقها، يشاركون التّجار الأجانب في البيع والشّراء، ويوظفون مابين مائتي دينار وخمسمائة ، وتجّار كبار يقومون برحلات نحو السّودان ودول أروبا ويحتكرون عددا من السّلع والبضائع .(٢١٥)

وتنفرد الفئة الثالثة عن غيرها بتنشيطها للتّجارة الخارجيّة ، إذ أصبحت مدن المغرب الأوسط مقصدا للقوافل والتّجار من الأقطار المختلفة خاصّة القادمة من أروبا وغيرها من البلاد المسيحيّة [٢١٦] وقد لعبت الموانىء التّجارية دورا أساسيا في تفعيل المبادلات التّجارية عن طريق البحر الأبيض المتوسط .[٢١٧]

لقد كان التّجار المسيحيّون القادمون من أروبا يتمتعون بالأمن والحماية أثناء إقامتهم في موانئ المغرب الأوسط ، أو أثناء رحلاتهم البحرية متّجهين نحو هذه المناطق ، وزيادة على ذلك فقد كانوا أحرارًا في بيع سلعهم إمّا نقدا أو مقايضة على أن يلتزموا بواجبات مقابل هذه الضمانات منها الرقابة الدائمة على السلع والبضائع الواردة إلى أسواق المغرب الأوسط ، وعدم الإحتكار التجاري لسلعة معينة ، إلى جانب التقيد ببعض المحظورات المتعلقة بنوع البضائع المتبادلة ، ودفعهم للضرائب المفروضة على سلعهم للسلطة الحاكمة في تلمسان.[٢١٨]

وتذكر كتب الجغرافيا والرّحلات ، عددًا من الموانئ التّي قامت بدور فاعل في الحركة التّجارية ، ومن هذه الموانئ ميناء تنّس فهو من أكبر الموانئ التي يتعدى إليها الأندلسيّون بمراكبهم ويقصدونها بمتاجرهم [٢١٩] أمّا المرسى الكبير الذي لايبعد عن وهران سوى بضعة أميال ، فهو من أشهر موانئ المغرب الأوسط، ترسو فيه بسهولة مئات المراكب والسّفن المحمّلة بالبضائع والقادمة من أروبا .[٢٢٠]

كما كان لميناء مستغانم رغم صغر حجمه ، دورهام في استقبال منتجات أروبا لتغطية الاحتياجات الاستهلاكية للسّكان ، رغم أنّ أصحاب السّفن لا يحققون أرباحًا مهمّة لشدّة فقر السّكان . [٢٢١]

وفي مقابل ذلك عرفت مدن المغرب الأوسط على غرار مدينة تلمسان حركة تجارية نشيطة مع بلاد السّودان[٢٢٢]، فبرزت في المجتمع التلمساني عائلات عدّة مارست النّشاط التّجاري ، واشتهرت بالغنى ويسر الحال أهمّها : عائلة المقري التّي اشتهرت بتجارتها الواسعة للذّهب ، وامتلاكها لعدد من الوكالات التّجارية في الواحات الصّحراوية [٢٢٣] إلى جانب عائلة

النجّار التي اشتهرت بحياكة الصّوف والتّجارة فيه مع البلدان المختلفة مشرقًا ومغربًا، فضلا" عن عائلة المرازقة والعقباني وغيرها من البيوتات التي جمعت بين العلم والتّجارة في آن واحد.[٢٢٤]

لقد كان هؤلاء التّجار يزاولون التّجارة بأنفسهم ، أو بوساطة مواليهم وعبيدهم وفي بعض الحالات لجأ هؤلاء إلى استئجار وكلاء ينوبون عنهم في عملياتهم التّجارية ، سواء أفي السّودان أم بلاد المشرق أم دول أروبا ، ومن الوكلاء من كان يختصّ بتاجر واحد ، وبعضهم منهم بعدد من التّجار حيث يستقبلون سلعهم ، وينقلونها بعد ذلك إلى المدن الدّاخلية.[٢٢٥]

لقد حرص هؤلاء التّجار على تأمين مدن المغرب الأوسط تجاريًا ، وتغطية احتياجات سكّانها من البضائع والمؤن، فيصفهم مارمول بأنهم « أناس طيبون أوفياء في تجارتهم ، معتزّون بالنّظم والحضارة وحسن التّدبير، مهذبون مع الأجانب ، وأهم تجارتهم في غينيا حيث يحملون بضائعهم كلّ سنة ويأتون منها بالتّبر والعنبر والمسك وسنور الزّباد ورقيق السّود وأشياء أخرى من بضائع البلد، ويتجرون بالتّبادل محققين كثيرًا من الرّبح حتّى لا تكفي رحلتان أو ثلاث ليستغني التّاجر.» [٢٢٦]

ويضيف حسن الوزّان قائلاً :هم « أناس منصفون مخلصون جدّا وأمناء في تجارتهم، يحرصون على أن تكون مدينتهم مزوّدة بالمؤن على أحسن وجه ، أهم أسفارهم التّجارية هو الذي يقومون به إلى بلاد السّودان ، وهم وافروا الغنى أملاكًا ونقودًا .» [٢٢٧]

## الخاتمة

وكنتائج نهائية لموضوع بحثنا المتواضع، يتضح أن التنوع الاجتماعي في التركيبة البشرية للمجتمع الزياني قد أضفى نوعًا من الثّراء السوسيولوجي على وفق معايير محدّدة ، إلاّ أنّه أخفى في الوقت نفسه مسألة التفاوت الطبقي ، وتركّز الثروة والجاه لدى فئة خاصة دون أخرى، وفتح المجال لانتشار بعض مظاهر الفساد والانحلال الخلقي ، ممّا أحدث شرخًا واضحًا انعكست آثاره سلبًا على وحدة المجتمع وأدائه المتكامل سياسيًا واجتماعيًا واقتصاديًا وثقافيًا ، وحمل في طيتّه تذمّر الرعيّة من السّلطة في المغرب الأوسط .

وممّا ميّز البنية الاقتصادية للدّولة الزيّانية ، تلك الإمكانيات المتنوعة التي شكّلت دعائم قوية للقطاعات المنتجة التي شملت الزراعة والصناعة وسائر الأنشطة التجارية الأخرى، وكشفت هذه الإمكانيات عن حيوية الموقع، و وفرة مصادر المياه، وجودة التربة ، وتنوع المناخ، وبعض النّظم المحكمة المتعلقة بكيفية إستغلال الأرض الزراعية ( مزارعة ، مغارسة، مساقاة) وطريقة سقيهاعلى وفق ما تقتضية الشريعة الإسلامية و ما تمليه عادات المجتمع التلمساني وتقاليده ، إلى جانب التّنظيم الجيّد لظاهرة الرعي وتربية الماشية ، كمصدرٍ من مصادرة الثّروة .

كما شهد القطاع الصناعي ازدهارًا كبيرًا ، بسبب الاهتمام المتزايد لسّلاطين الدّولة ، ووفرة المواد الخّام وتنوعها ، وما اكتسبه الصنّاع من خبرات اضافية بفضل الهجرة الأندّلسية إلى مدن المغرب ، حيث كان ذلك عاملاً مشجّعًا على وفرة الانتاج وتنوعّه ، وشكّل قاعدة جديدة لبداية ترويجه وتسويقه .

ونظراً لخصّوصية الأوضاع السياسية والأمنية التي سادت بلاد المغرب ، فقد حرص سّلاطين الدولة من بني زيّان على توفير الأمن والاستقرار، وتأمين طرق النقل والمواصلات والضرب على أيدي كلّ من تسوّل له نفسه الاعتداء على الأموال والقوافل، من القبائل

المعارضة للسّلطة وقطّاع الطرق ، فاستحدثوا تنظيمات جديدة (الرتب ، الغرباء) وفتحوا المجال لإقامة علاقات تجارية متنوعة بين الشمال والجنوب وداخل مدن الدّولة .

وإلى جانب العناية الخاصّة بالتجارة الخارجية فقد توفرت للنّشاط التّجاري الأسواق الداخلية ، التي حضيت بعناية خاصّة من قبل السلطة الحاكمة في حاضرة الدولة بيعًا وشراءً، وذلك بتنظيمها وحسن إدارتها ، من خلال توزيع الأسواق حسب طبيعة نشاطها ، وإقامة الفنادق وتجديدها خدمةً للتّجار والغرباء، مع تفعيل دور المحتسب، وتحديد نظام التسعّير لوضع حدٍّ لكلّ أشكال الغشّ والتّدليس ، والمضاربة في السّلع والأسعار.

## الهوامش

(١) محمد بن رمضان شاوش ، باقة السوسان في التعريف بحاضرة تلمسان عاصمة دولة بني زيان ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر،١٩٩٥ / ٣٥٨

(٢) عبد الرحمن بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م ) ، تاريخ إبن خلدون ، المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر ، لبنان ، ٢٠٠٠ ، ٧ / ٠٣

(٣) يحي بوعزيز، الموجز في تاريخ الجزائر ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر، ١٩٩٩ ، ١ / ٢١٠

(٤) بن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ، ٧ / ١١

(٥) زناتة طبقتان ، الطبقة الأولى منهم مغراوة التي سيطرت على فاس ، وأوربة الصنهاجية ، وبنو يفرن ملوك سلا ، وزناتة الطبقة الثانية هم بنو مرين وبنو وطاس وبنو عبد الواد ، أنظر : إبن الأحمر ، تاريخ الدولة الزيانية ، تقديم وتحقيق وتعليق هاني سلامة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط ١ ، ٢٠٠١ / ١٣

(٦) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م. س ،٧ / ٠٣

(٧) إبن الأحمر ، م.س / ٠٥ ، شاوش ، م. س / ٣٥٨

(٨) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ، ٧ / ١١٦

(٩) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.ن ،٧ / ٢٠٦

(١٠) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.ن ،٧ / ٢٠٧

(١١) إبن الأحمر ، م. س / ١٠-١٣

(١٢) فيلالي عبد العزيز ، تلمسان في العهد الزياني ( دراسة سياسية، عمرانية، إجتماعية ، ثقافية ) ، فوم للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ٢٠٠٢ ، ٢ / ٣٥٩

(١٣) شكري فيصل ، المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٨١ / ١٧١

(١٤) يصف العديد من المستشرقين من ذوي النزعة الاستعمارية الهجرة الهلاليّة بالحركة الهمجيّة المسببة للدّمار والخراب الذي لحق بالبنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية لبلاد المغرب ، ويحمّلون العرب المسؤوليّة الكاملة في اضمحلال الحضارة الغربية ، ونشر الفوضى وإدخال البداوة وإحتلال أراضي البربر وضمها عنوة . أنظر :

- Georges Marcais, La Berberie musulmane et l`orient au Moyen Age, Casablanca. Editions Afrique Orient. 1991, P 193

- Emil Felix Gautier, L`islamisation de l`Afrique du Nord , les siecle obsccurs du Maghreb,. Paris,1927,P 389

(١٥) مبارك بن محمد الميلي ، تاريخ الجزائر في القديم والحديث ، تقديم وتصحيح محمد الميلي ، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، د. ت ، ٢ / ٤٦٢/ ١٧٨ ، أحمد جمال طه، الحياة الإجتماعية في المغرب الأقصى في العصر الإسلامي، دار الوفاء للطباعة والنشر، الإسكندرية ، ٢٠٠٤ / ٦٢

(١٦) بنو هلال يعود نسبهم إلى قيس إبن عيلان من العدنانية ، فهم بنو هلال بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن أبي بكر بن هوزان، ولهم بطون كثيرة منها مرداس، بنو عامر، بنو سعيد ، بنو سليم ... أنظر: عمر رضا كحالة ، معجم القبائل القديمة ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٨ ، ٢ /١٢٢١

(١٧) الإقطاع يعني لغة وعرفا ، تفويض السلطة لشخص أو لجماعة على رقعة محددة ، ثم توسع المفهوم ليشمل جباية الأعشار، وإستغلال الأراضي الفلاحية وإستخلاص فوائد الرعي، وقبض الرسوم، مقابل هذه الإمتيازات كان المستفيد من الإقطاع يتحمل مسؤوليتين الأولى دفاعية ردعية يحارب بموجبها أعداء السلطان، والثانية جبائية يرغم بموجبها السكان على دفع مابذمتهم للخزينة العامة .أنظر : العروي عبد الله، مجمل تاريخ المغرب ، ط ٢ ، الدار البيضاء ، المملكة المغربية ، ٢٠٠٠ ، ٢ / ٢١١

(١٨) ضيف أبو مصطفى أحمد، أثر القبائل العربية في الحياة الإجتماعية المغربية (خلال عصري الموحدين وبني مرين ) ، مطبعة دار النشر المغربية ، ط ١ ، الدار البيضاء ، المغرب ، ١٩٨٢ / ٢١٨.

(١٩) قبائل المعقل يزعم أن نسبهم لأهل البيت وبالضبط إلى جعفر بن أبي طالب ، وذلك غير صحيح حسب إبن خلدون ، والصحيح أنهم من عرب اليمن و المعقل هو: ربيعة بن كعب بن ربيعة بن الحارث ، وهو من بطون مذحج اليمنيين وتنقسم المعقل إلى ثلاثة فروع: بنو عبيد الله، ذوي منصور ، ذوي حسان . أنظر : إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ، ٦ / ٧٨-٧٩

(٢٠) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.ن ، ٦ / ٧٧

(٢١) العروي ، م.س ، ٢ / ٢١٢

(٢٢) بوزياني الدراجي ، نظم الحكم في دولة بني عبد الواد الزيانية ، ديوان المطبوعات الجامعية ، الجزائر ، ١٩٩٣ / ٢٠٠-٢٠٣

(٢٣) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ، ٦ / ٥٦

(٢٤) بوزياني ، م.س / ٢٠٤

(٢٥) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ، ٦ / ٧١

(٢٦) يجاورون بني عامر بنو زغبة من سلطان بني عبد الواد ، ومواطنهم مابين تلمسان إلى وجدة إل مصب واد ملوية في البحر ومنبعث وادي صامن القبلة ، وبينهم وبين بن عامر فتن وحروب . أنظر : إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ، ٦ / ٨٠

(٢٧) إبن الأحمر ، م.س / ٢٤ ، إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ،٦ / ٨٠- ٨٢

(٢٨) عبد الله كنون ، النبوغ المغربي في الأدب العربي ، ط٢ ، بيروت ، ١٩٦١ ، ١١ / ١٧٦-١٧٨

(٢٩) العروي ، م.س ، ٢ / ٢١٤ - ٢١٥

(٣٠) عز الدين أحمد موسى ، النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري ، دار الشروق ، القاهرة ، ١٩٨٣ / ٨٥

(٣١) الجيلالي عبد الرحمن ، تاريخ الجزائر العام ، ديوان المطبوعات الجامعية ، ط ٧،الجزائر ، ١٩٩٤ ، ٢ / ١٦٧ ، محمد عبد الله عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، العصر الرابع (نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين) ، مكتبة الخانجي ، ط١ ، القاهرة ، ١٩٩٧ /٢١٧ – ٢٢٦ ، روبير برونشفيك ، تاريخ إفريقيا في العهد الحفصي من القرن ١٣ إلى نهاية القرن ١٥ م ، ترجمة حمادي الساحلي ، ط١ ، دار الغرب الإسلامي ، بيرروت ، ١٩٨٨ ، ١ / ٤٣٣

(٣٢) عنان ، م. س ، ٣١١

(٣٣) مجهول ، نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، ضبطه وعلق عليه ألفريد البستاني ، مكتبة الثقافة الدينية ، ط٢ ، القاهرة ، ٢٠٠٢ / ٤٨

(٣٤) جورج مارسي ، تلمسان ، ترجمة سعيد دحماني ، دار التل للنشر ، الجزائر ، ٢٠٠٤ / ٨٦ ، محمد بن رمضان شاوش ، م.س / ٤٠٢ ، حاجيات ، م.س ، ٣ /٤٦٤ ، بوزياني ، م.س / ١٢٥

(٣٥) أنظر ترجمته في: إبن مريم أبو عبد الله محمد بن أحمد ( كان حيا سنة ١٠١٤ هـ / ١٦٠٥ م ) ، البستان في ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان ، إعتنى بمراجعته محمد بن أبي شنب ، المطبعة الثعالبية ، ١٩٠٨ / ٢١٤

(٣٦) الجيلالي ، م.س / ١٦٧

(٣٧) بوزياني ، م.س / ١٢٥

(٣٨) برونشفيك ، م.س ، ٢ / ١٥٩-١٦٠

(٣٩) من بين علماء الأندلس الوافدين على المغرب الأوسط : القاضي أبو عبد الله محمّد بن علي بن محمّد الشهير بإبن الأزرق الغرناطي ، الشاعر والأديب أبو عبد الله محمّد بن جابر الوادي أشي ، العالم أبو الحسن علي بن محمّد الشهير بالقلصادي ، العالم أبو عبد الله محمّد إبراهيم بن أحمد الآبلي ، الكاتب أبو بكر محمّد بن عبد الله بن خطاب المرسي ، القاضي أبو الحسن محمّد بن غلبون المرسي ...إلخ . أنظر : الطمار، م.س ، ١ / ٢١٩ -٢٢٠ ، الجيلالي ، م.س / ١٦٧ – ١٦٨ ، شاوش ، م.س / ٤٠٢ -٤٠٣

(٤٠) سعد الله أبو القاسم ، تاريخ الجزائر الثقافي ، دار الغرب الإسلامي ، ط ١ ، بيروت ، ١٩٩٨ ، ١ / ٤٧

(٤١) برونشفيك ، م. س ، ٢ / ١٦٠

(٤٢) أنظر : ناصر الدين سعيدوني ، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في المدة الحديثة والمعاصرة ، المؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر، ١٩٨٨ ، ٢ / ٢٨٣

Richard Ayoun Bernard Cohen et ,Les juifs d`Algerie 2000 ans d`histoire, Paris,1982, P 27-35

(٤٣) محمد شحاته ريه ، م.س / ٢٦ - ٣٤

(٤٤) برونشفيك ، م.س ، ١ / ٤٣٣ ، مارسي ، م.س / ١٠٠

(٤٥) بورويبة وآخرون ، م.س ، ٣ /٤٩٠ ، مارسي ، م.س .ص ن

(٤٦) شاوش ، م.س / ٣٦٤ - ٣٦٥

(٤٧) الونشريسي أبو العباس (ت ٩١٤ هـ ، ١٥٠٨ م)، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ١٩٨١ ، ٢ / ٢١٧ -٢١٩

(٤٨) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٢ / ٢٥٣

(٤٩) سعد الله فوزي ، يهود الجزائر، هؤلاء المجهولون، دار قرطبة ، المحمدية – الجزائر ، ط ٢ ، ٢٠٠٥، ١ / ١٠٧

(٥٠) محمّد بن أحمد إبن شقرون ، مظاهر الثقافة المغربية ، دار الثقافة ، الدار البيضاء - المغرب ، ١٩٨٥ / ٤٠

(٥١) إبن شقرون ، م.ن / ٤٢

(٥٢) سعد الله فوزي ، م.س / ١٠٨ - ١١٩

(٥٣) سعد الله فوزي ، م.ن / ١١٣

(٥٤ إبن خلدون ، المقدمة ، م.س ، ١/ ٢٩٤-٣٠٠

(٥٥) بورويبة وآخرون ، م.س / ٤٦٣

(٥٦) أبو حمو موسى العبد الوادي (ت ٧٩١ هـ/ ١٣٨٨ م ) ، واسطة السلوك في سياسة الملوك ، مطبعة الدولة ، تونس ، ١٨٦٢ / ٨١

(٥٧) بورويبة وآخرون ، م.س ، ص.ن

(٥٨) مارسي ، م.س / ٩١ -٩٢ ، شاوش ، م.س / ٤٦٦ – ٤٦٧

(٥٩) أبو حمو موسى ، م.س / ٨١ – ٨٥

(٦٠) بورويبة وآخرون ، م.س / ٤٦٧

(٦١) أبو زكرياء يحي بن محمد إبن خلدون (ت ٧٨٠ هـ/ ١٣٧٨ م ) ، بغية الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ، تحقيق ألفريد بال ، الغوثي أبو علي ، مطبعة فونطانة ، الجزائر ، ١٩٠٣ ، ١ / ١١١

(٦٢) يحي بن خلدون ، م.ن / ٦٢

(٦٣) بورويبة وآخرون ، م.س / ٤٦٨ ، بوزياني ، م.س / ١١٩

(٦٤) يحي بن خلدون ، م.س / ١٢٧

(٦٥) يحي بن خلدون ، م.ن / ٥٩- ١٩٣ ، بورويبة وآخرون ، م.س / ٤٦٨

(٦٦) أبو حمو موسى ، م.س / ٦١

(٦٧) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٢ / ٤٩٢

(٦٨) إبن خلدون عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ/ ١٤٠٥ م ) ، المقدمة ، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ، مراجعة سهيل زكار ، دار الفكر ، لبنان ، ٢٠٠٠ / ٢٧٣

(٦٩) إبن خلدون ، المقدمة ، م.ن ، ١/ ٢٩٤

(٧٠) فيلالي ، م.س ، ٢/ ١٨٢

(٧١) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٢ / ٤٨٠-٤٨١

(٧٢) أنظر ترجمته في : مخلوف محمد بن محمد ،شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، المطبعة السلفية ومكتبتها ، القاهرة (١٩٣٠- ١٩٣١) ، ١ / ٢٥٤ ، إبن مريم ، م.س / ٤١ - ٤٣

(٧٣) شاوش ، م.س / ٤٣٤

(٧٤) الحفناوي أبو القاسم محمد الديسي ، تعريف الخلف برجال السلف ، مطبعة بيير فونتانة الشرقية ، الجزائر ، ١٩٠٦ ، ٢/ ١٥ – ١٦

(٧٥) أنظر ترجمته في : إبن مريم ، م.س / ٢٢٦

(٧٦) فيلالي ، م.س ، ٢ / ٣٨٩

(٧٧) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٢ / ٤٩١-٤٩٢

(٧٨) مختار حساني ، تاريخ الدولة الزيانية ، ( الأحوال الإقتصادية والثقافية ) منشورات الحضارة ، الجزائر ، ٢٠٠٩ ، ٢ / ٢١٩

(٧٩) التنبكتي م.س / ١٣٥ ، الحفناوي ، م .س ، ١ / ٦٢ ، إبن مريم ، م.س / ٥٣

(٨٠) أنظر ترجمته في : الشفشاوني محمد بن عسكر الحسني ، دوحة الناشر لمحاسن من كان بالمغرب من مشايخ القرن العاشر ، تحقيق محمّد حجي ، دار الغرب للتأليف والترجمة ، ط٢ ، الرباط ، ١٩٧٧ / ١٢٤– ١٢٥ ، الحفناوي ، م.ن ، ٢ / ٩٧– ١٠٠

(٨١) الورثيلاني الحسين بن محمّد ( ت ١١٩٣ هـ/ ١٧٨٣ م ) الرحلة الورثيلانية ، نزهة الأنظار في فضل علم التاريخ والأخبار، تقديم محمّد بن أبي شنب، دار الكتاب العربي، ط٢ ، بيروت ،١٩٧٤ / ٣٧ ، الحفناوي، م. ن ، ص. ن

(٨٢) سعد الله أبو القاسم ، م.س ، ١ / ٥٧

(٨٣) أنظر ترجمته في : إبن مريم ، م.س / ١٤٧ – ١٤٩ ، التنبكتي ، م .س / ٣٦٥-٣٦٦

(٨٤) أنظر ترجمته في : الحفناوي ، م .س ، ٢ / ٦ ، شاوش ، م.س / ٤٣٧

(٨٥) أنظر ترجمته في: إبن مريم ، م.س /٢٢٤ ،التنبكتي ،م .س / ٥٤٧– ٥٤٨ ، الحفناوي ، م .س ، ١ / ٨٥-٨٦

(٨٦) أنظر ترجمته في : إبن مريم ، م.س / ٢٩١

(٨٧) أنظر ترجمته في : إبن مريم ، م.ن / ٢٥٢ ، التنبكتي ، م .س / ٤٩٣

(٨٨) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ١٠ / ٢٢١ ، إبن فضل الله العمري أحمد بن يحي ( ت ٧٤٩هـ / ١٣٤٨ م ) ، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ، السفر الثامن ، تحقيق بسام محمد بارود ، المجمع الثقافي ، أبوضبي ، ٢٠٠٢ / ١٠٠

(٨٩) إبن مرزوق أبو عبد الله محمد التلمساني الخطيب ( ت ٧٨١ هـ / ١٣٧٩ م )، المناقب المرزوقية ، دراسة وتحقيق سلوى الزاهري ، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون اللإسلامية ، مطبعة النجاح الجديدة ، ط١، الدار البيضاء ، ٢٠٠٨ / ١٧٢ – ١٧٣

(٩٠) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٨ / ٢٣٦ -٢٣٧

(٩١) أنظر ترجمته في : إبن مريم ، م.ن / ٢٤٨ – ٢٤٩ ، التنبكتي ، م .ن / ٥٧٢ – ٥٧٣

(٩٢) سعد الله أبو القاسم ، م.س ، ١ / ٧٠ – ٧٣

(٩٣) سعد الله أبو القاسم ، م.ن ، ١ / ٧١

(٩٤) يحي إبن خلدون ، م.س / ٣ –٥

(٩٥) أنظر ترجمته في : إبن مريم ، م.س / ٢٥٢ ، التنبكتي ، م .س / ٥٧٩

(٩٦) سعد الله أبو القاسم ، م.س ، ١ / ٥٩

(٩٧) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٦ / ٠٥ – ٠٦

(٩٨) الوزان الحسن بن محمد، وصف إفريقيا ، ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ، دار الغرب الإسلامي، ط٢ ، بيروت ، ١٩٨٣ ، ٢ / ٢١

(٩٩) فيلالي ، م.س ، ١ / ٢١٤ – ٢١٥

(١٠٠) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٥ / ١٠٦ – ١١٠

(١٠١) فيلالي ، م.س ، ١ / ٢١٦ –٢١٨

(١٠٢) الوزان ، م.س ، ٢ / ٢٠ –٢١

(١٠٣) إبن مرزوق ، المناقب ، م.س / ١٤٨ – ١٨٩

(١٠٤) الوزان ، م.س ، ٢ / ٢١

(١٠٥) إبن مريم ، م.س / ٣٩ ، الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٨ / ٢٩٠

(١٠٦) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م. س ، ١١ / ٢٧٨ – ٢٧٩ ، ١٢ / ٤٨ – ٤٩

(١٠٧) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٢ / ٤٧١ – ٤٧٢

(١٠٨) التنسي ، م.س / ٢١٢

(١٠٩) كمال السيد أبو مصطفى ، جوانب من الحياة الإجتماعية والإقتصادية والدينية من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي ، مركز الإسكندرية للكتاب ، الإسكندرية ، ١٩٩٦ / ٤٥

(١١٠) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٦ / ٤١٦ – ٤١٨ ، كمال السيد أبو مصطفى ، م.س / ٤٥ – ٤٦

(١١١) الوزان ، م.ن ، ١ / ٢٥٨

(١١٢) الونشريسي ، المعيار ، م.س ، ١ / ٣١٧

(١١٣) العروي ، مجمل تاريخ المغرب ، المركز الثقافي العربي ، ط١ ، بيروت ، ١٩٩٩ ، ٢ / ٢١١

(١١٤) إبن خلدون ، كتاب العبر ، ، م.س ، ٦ / ١٠٣

(١١٥) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.ن ، ٦ / ٥٩

(١١٦) وفي هذا المجال يأتي ذكر عدد من القبائل ومشايخها من أمثال : قبيلة الحرث بن مالك ، وهم من العطّاف والديالم ، قبيلة زغبة ومنها قبائل بني عامر ، قبيلة ذوى منصور من المعقل ، قبيلة المنبات من ذوي منصور، أمّا عن مشايخ القبائل نذكر منهم : عنتر بن طرّاد بن عيسى ، يوسف بن مهدي من مشايخ سوّيد ، داوود بن هلال بن عطّاف من مشايخ بني عامر ، أنظر : إبن خلدون ، م.ن ، ٦ / ٦١ –١١٠

(١١٧) إبن خلدون ، م.ن ، ٦ / ٦٤ –٦٥

(١١٨) حساني ، م.س ، ٢ / ٢١

(١١٩) حساني ، م.ن ، ص. ن

(١٢٠) برونشفيك ، م.س ، ٢ / ١٨٩

(١٢١) م.ن ، ص. ن

(١٢٢) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٧ / ٣٣٤

(١٢٣) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٩ / ٧٣

(١٢٤) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ص.ن

(١٢٥) برونشفيك ، م.س ، ٢ / ١٩٤

(١٢٦) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٦ / ١٣٣

(١٢٧) برونشفيك ، م.س ، ٢ / ١٩٥

(١٢٨) حساني ، م.س ، ٢ / ١٥

(١٢٩) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٧ / ٣٠١

(١٣٠) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٧ / ٣٤ ، برونشفيك ، م.س ، ٢ / ١٩٤ –١٩٥

(١٣١) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٥ / ١١٦

(١٣٢) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٨ / ١٤٣

(١٣٣) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٨ / ١٣٧

(١٣٤) أحمد ابن مغيث الطليطلي ( ٤٥٩ هـ / ١٠٦٧م ) ، المقنع في علم الشّروط ، تقديم وتحقيق فرانشيسكو خابيير أغيري شادابا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية ، مدريد، ١٩٩٤ /٢٦٢ –٢٦٥

(١٣٥) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٨ / ١٥٢ – ١٥٤

(١٣٦) القيرواني أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن أبو زيد (٣٨٦ هـ / ٩٩٤ م ) ، النوادر والزيادات على مافي المدونة من غيرها من الأمهات، تحقيق محمد عبد العزيز الدباغ ، دار الغر الإسلامي ، ط١ ، بيروت، ١٩٩٩ ، ٧ / ٣٨٧ – ٣٩٧

(١٣٧) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٨ / ١٧٤

(١٣٨) إبن مغيث ، م.س / ٢٧٣ – ٢٧٥

(١٣٩) القيرواني ، م.س ، ٧ / ٢٩٧

(١٤٠) الوزان ، م.س ، ٢ / ٢٠

(١٤١) إبن حوقل أبو القاسم محمد النصيبي (ق ٤ هـ / ١٠ م ) صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت ، ١٩٩٢ / ٧٨

(١٤٢) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٥ / ١٢ –١٣ – ٢٠– ١١١

(١٤٣) القلقشندي أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١ هـ / ١٤١٨ م ) صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٢٢ ، ٥ / ١٥٠

(١٤٤) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٥ / ١١١

(١٤٥) إبن حوقل ، م.س / ٧٩- ٨٨

(١٤٦) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٨ / ١٣٧ ، إبن مغيث ، م.س / ٢٦٢ - ٢٧٥

(١٤٧) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٥ / ١٢ -١٣ – ٢٠- ١١١ ، عبد الحميد حاجيات ، أبو حمو موسى الزياني – حياته وآثاره ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٢ / ٦٢

(١٤٨) العبدري أبو عبد الله محمد بن محمد (ق ٧ هـ / ١٣ م ) ، رحلة العبدري المسمّاة الرحلة المغربية ، تحقيق وتقديم وتعليق محمد الفاسي ، الرباط ، ١٩٦٨ / ١٦

(١٤٩) الإدريسي أبو عبد الله محمد بن محمد (ت ٥٥٨ هـ / ١١٦٢م ) ، نزهة المشتاق في إختراق الأفاق، مكتبة الثقافة الدينية ، مصر ، د.ت ، ١ / ٢٥٠ - ٢٥٥

(١٥٠) الإدريسي ، م.ن ، ١ / ٢٥٠ – ٢٥٥

(١٥١) الوزان ، م.س ، ٢ / ٢٠

(١٥٢) يحي إبن خلدون ، م. س ، ١ / ١٠

(١٥٣) الوزان ، م. س ، ٢ / ٣٠- ٤٦

(١٥٤) القلقشندي ، م. س ، ٥ / ١١١

(١٥٥) إبن حوقل ، م. س / ٧٨

(١٥٦) الإدريسي ، م.س ، ١ / ٢٥٢ – ٢٥٣

(١٥٧) بوزياني ، م. س / ٢١١ -٢١٢

(١٥٨) الوزان ، م. س ، ٢ / ٢٤- ٣٧

(١٥٩) الوزان ، م. ن ، ٢ / ٣٣- ٤٤

(١٦٠) الوزان ، م. ن ، ٢ / ٣٣

(١٦١) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٨ / ١٤٥- ١٤٦

(١٦٢) الوزان ، م.س ، ٢ / ١٣

(١٦٣) حساني ، م.س ، ٢ / ٣٢

(١٦٤) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ، ٦ / ١١٦

(١٦٥) بوزياني ، م.س / ٢١

(١٦٦) حساني ، م.س ، ٢ / ٣٩ - ٤٠

(١٦٧) إبن حوقل ، م.س / ٧٨ - ٨٦

(١٦٨) الوزان ، م.س ، ٢ / ٢٦- ٢٩

(١٦٩) مارسي، م.س / ١٠٠ -١٠١، الوزان ، م. س ،٢ / ١٤- ٣٤ ، حساني ، م.س ،٢ /٩٢ – ٩٤

(١٧٠) يحي إبن خلدون ، م.س ، ١ / ٢٢

(١٧١) الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ق ٦ هـ / ١٢ م ) ، كتاب الجغرافيا ، تحقيق محمد حاج صادق ، مكتبة الثقافة الدينية ، القاهرة ، د.ت / ١١٣- ١١٤

(١٧٢) إبن مرزوق ، المناقب ، م.س / ١٤٨ - ١٨٩

(١٧٣) مارسي ، م.س / ١٠١

(١٧٤) إبن مريم ، م.س / ٣٨ – ٣٩

(١٧٥) مارسي ، م.س ، ص .ن

(١٧٦) برونشفيك ، م.س ، ٢ / ٢٤٢ -٢٤٣

(١٧٧) جمال أحمد طه ، مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين (دراسة سياسية وحضارية ) ، دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر ، الإسكندرية ،د.ت / ٢١٥

(١٧٨) حساني ، م.س ، ٢ / ٩٨

(١٧٩) الوزان ، م.س ، ٢ / ١٥

(١٨٠) مارسي ، م.س / ٥٥

(١٨١) البكري أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م ) ، المغرب في ذكر إفريقية وبلاد المغرب ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة ، د.ت / ٧٠ ، الوزان الحسن بن محمد ، م.ن ، ٢ / ٢٤

(١٨٢) محمد عيسى الحريري ، تاريخ المغرب الإسلامي والأندلس في العصر المريني ، دار القلم للنشر والتوزيع ، ط٢ ، الكويت ، ١٩٨٧ / ٢٨٦

(١٨٣) حساني ، م.س ، ٢ / ٩٨

(١٨٤) بوزياني ، م.س / ٢٢٧ – ٢٣٦

(١٨٥) أحمد مختار العبادي ، من مظاهر الحياة الإقتصادية في المدينة الإسلامية ، مجلة عالم الفكر ، العدد ٠١ / المجلد الحادي عشر ، الكويت، ١٩٨٠ / ١٥٧

(١٨٦) الوزان ، م.س ، ٢ / ٢٦ –٢٧ ، حساني ، م.س ، ٢ / ٤٥

(١٨٧) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٣ / ١٥٧– ٢١٧ ، ١٠ / ٢٤٢– ٤٠٩ ، ١١ / ١٢٥

(١٨٨) Dufourc Charles Emmanuel , L` Espagne catalane et le Maghreb aux XIII et XIV, Paris, 1966 / 13

(١٨٩) مارمول كربخال (ق ١٠ هـ / ١٦م )، إفريقيا ، تحقيق محمد حجي وآخرين، مطبعة المعارف ، الرباط، ١٩٤٨، ٢ / ١٤٩– ١٥٢، الونشريسي، المعيار المعرب ، م.س ، ٨ / ٣٥٦ – ٣٦٤ ، ٦ / ٧٨

(١٩٠) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٥ / ١٩٧

(١٩١ ) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ٥ / ٩٠ ، ٨ / ١٤٤

(١٩٢ ) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.ن ، ١١ / ١٤٤ ، ٨ / ١٤٤

(١٩٣) برونشفيك ، م. س ، ٢ / ١٩٥

(١٩٤ ) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٦ / ٤٠٩ – ٤١٦

(١٩٥) العقباني محمد بن أحمد بن قاسم التلمساني (ت ٨٧١ هـ / ١٤٦٧م ) تحفة الناظر وغنية الذاكر في حفظ الشعائر وتغيير المناكروتغييرالمناكر، تحقيق ونشر علي الشنوفي ، مجلة الدراسات الشرقية ، المعهد الفرنسي داماس ، العدد ١٩ ، ١٩٦٧ ، / ١١٤

(١٩٦) العقباني ، م.ن / ١١٨

(١٩٧) بروفنسال ليفي ، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب ، مطبعة المعهد العلمي لآثار الشرقية ، القاهرة ، ١٩٥٥ /٢٠

(١٩٨ ) العقباني ، م.س ، ص.ن

(١٩٩) الوزان ، م. س ، ٢ / ٢٧ ، حساني ، م.س ، ٢ / ٤٩

(٢٠٠) المجيلدي أبو العباس أحمد بن سعيد (ت ١٠٩٤ هـ / ١٣٤٦ م ) ، التسيير في أحكام التسعيير ، تحقيق موسى لقبال ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، ط ١ ، الجزائر ، ١٩٨١ / ٤٨ – ٥٣ ، العقباني محمد بن أحمد بن قاسم ، م.س / ١٣١ – ١٣٤

( ٢٠١) المجيلدي ، م.ن ، ص.ن ،

(٢٠٢ ) العقباني ، م. س / ١٣٥

(٢٠٣) إبن مرزوق ، م.س / ١٩٤ ، التنسي ، م.س / ١٣٠– ١٣٢

(٢٠٤) إبن خلدون ، كتاب العبر ، م.س ، ٧ / ١٢٨

(٢٠٥) الوزان ، م. س ، ٢ / ١٨

(٢٠٦) العقباني ، م. س / ١٢٧–١٣١

(٢٠٧) العقباني ، م.ن / ١٣٥

(٢٠٨) حساني ، م. س ، ٢ / ٦٠

(٢٠٩) العقباني ، م.س / ١٢٨

(٢١٠) العقباني ، م .ن / ١٢٩

(٢١١) الونشريسي ، المعيار المعرب ، م.س ، ٩ / ١٢٠- ١٢٢ ، ٥ / ٢٢٠

( ٢١٢) حساني ، م. س ، ٢ / ٦٥

(٢١٣) فيلالي ، م. س ، ١ / ٢١٥- ٢١٦

(٢١٤) حساني ، م.س ، ٢ / ٤١

(٢١٥) حساني ، م.ن، ص.ن

(٢١٦) الوزان ، م. س ، ٢ / ٣٠

- Dufourc Charles Emmanuel , op.cit . / 134 -139

(٢١٧) بورويبة وآخرون ، م.س / ٤٧٩ - ٤٨٠

(٢١٨) بورويبة وآخرون ، م.ن / ٤٧٩ - ٤٨٥

(٢١٩) إبن حوقل ، م. س / ٧٨

(٢٢٠) الوزان ، م. س ، ٢ / ٣٠

(٢٢١) الوزان ، م.ن ، ٢ / ٣٢

(٢٢٢) الوزان ، م.ن ، ٢ / ٢١ ، فيلالي ، م.س ، ١ / ٢١٣- ٢١٩

(٢٢٣ ) المقري شهاب الدين أحمد بن محمد (ت ١٠٤١ هـ / ١٦٣١ م ) ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٨٨ ، ٥ / ٢٠٥- ٢٠٦

(٢٢٤) إبن مرزوق ، م. س / ١٤٨ - ١٨٩

(٢٢٥ ) حساني ، م. س ، ٢ / ٤٢ - ٤٣

(٢٢٦) كربخال ، م. س ، ٢ / ٣٠٠

(٢٢٧) الوزان ، م. س ، ٢ / ٢١